ABDULLRAHMAN MOKBEL

عبدُ الرحمَن مُقبل

من المؤمنات نساء

BELIEVERS, WOMEN OF POWERFUL FAITH

عصير الكتب

من المؤمنات نساء

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- الطبعة الأولى: أبريل 2021م
- رقم الإيداع: 3043/ 2021م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-150-1
- المؤلف: عبد الرحمن مقبل
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

A B D U L L R A H M A N   M O K B E L

عبدُ الرحمَن مُقبل

من المؤمنات نساء

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

أسماء بنت أبي بكر

هي: أَسْمَاءُ بِنْتُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ بن أبي قحافة عُثْمَان بن عَامِرِ بن عَمْرِو بنِ كَعْبِ بنِ سَعْدِ بنِ تَيْمِ بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك القرشيَّة التيميَّة، أبوها أبو بكر الصديق الخليفة الراشد الأول.

فأبوها صَحابيٌّ، وجَدُّها صَحابيٌّ، وأختها صحابية، وزوجُها صحابيٌّ، وابنها صحابيٌّ....

وحَسَبُها (يكفيها) بذلك شرفًا وفخرًا...

أما أبوها فالصِّدِّيقُ خليلُ الرسول الكريم في حياته، وخليفته من بعد مماته.

وأما جدُّها فأبو عتيقٍ والدُ أبي بكر.

وأما أختها فأمُّ المؤمنين عائِشةُ الطاهِرةُ المُبرأةُ.

وأما زوجُها فحوارِيُّ رسولِ الله الزبيرُ بنُ العوَّام.

وأما ابنها فعبدُ الله بنُ الزبير -رضي الله عنه وعنهم أجمعين-...

إنها أسماء... وكفَى!

كانت من السَّابقاتِ إلى الإسلام، إذْ لم يتقدَّم عليها في هذا الفضل العظيم غيرُ سبعة عشر إنسانًا من رجُلٍ وامرأةٍ.

وقد لُقِّبت بذاتِ النِّطاقين لأنها صَنعتْ للرسول -صلواتُ الله عليه- ولأبيها يومَ هاجرا إلى المدينة زادًا، وأعدَّت لهما سقاءً (القربة وغيرها مما يوضع فيه الماء) فلمَّا لم تجدْ ما تربطهُما به شقَّت نِطاقها (ما تشد به المرأة وسطها) شِقين، فرَبطت بأحدِهما المِزود (كيس يوضع فيه الزاد للمسافر) وبالثاني السقاءَ، فدعا لها النبيُّ -عليه الصلاةُ والسلامُ- أن يبدلها الله مِنهما نِطاقين في الجَنةِ، فَلُقِّبت لذلِك بذاتِ النِّطاقين.

تزوَّج بها الزبير بن العوام، وكان شابًّا مُرملًا (فقيرًا) ليس له خادِم يَنهضُ بِخدمتهِ، أو مالٌ يوسِّعُ به على عياله غير فرسٍ اقتناها، فكانَت لهُ نعمَ الزوجةُ الصالِحة، تَخدمُه وتسُوسُ فرَسَه، وترعاهُ وتطحنُ النَّوى لِعلفِه، حتى فتحَ الله عليه فغَدا من أغنى أغنياءِ الصحابةِ.

ولما أتيحَ لها أنْ تهاجرَ إلى المدينةِ فرارًا بدينها إلى الله ورسولهِ، كانت قد أتمَّت حملها بابنها عبد الله بن الزبيرِ، فلم يَمنعها ذلك من تَحملِ مشاقِّ الرحلةِ الطويلةِ، فما إن بَلغت قباءَ (قرية على بعد ميلين من المدينة) حَتى وضعتْ وليدها.

وقد استبشر المسلمون بمولده، إذ كانوا قد بقوا لفترة لا يولَد لهم مولود حتى قيل إن يهود المدينة سحرتهم. فكبَّر المسلمون وهللوا، لأنَّه كان أولَ مَولودٍ يولدُ للمهاجرين في المدينَة.

فحملتْه إلى رسول الله -ﷺ- ووضعتهُ في حِجرهِ، فأخذَ شيئًا من ريقهِ وجعلهُ في فَم الصبيِّ، ثم حَنكه (مضغ شيئًا ووضعه في حنكه) ودعا له....

فكان أولَ ما دخل في جوفهِ ريقُ رسول الله -ﷺ-.

وقد اجتمعَ لأسماءَ بنتِ أبي بكرٍ من خَصائِلِ الخيرِ وشمائلِ النَّبلِ ورجاحةِ العقل ما لم يَجتمع إلا للقليلِ النادرِ من الناس، فَقد كانتْ من الجُود بحيث يُضربُ بجُودها المَثل.

حَدَّثَ ابنها عبد الله قال: ما رأيتُ امرَأتين قط أجودَ من خالتي عائشة وأمِّي أسماء، لكن جودهما مختلف، أما خالتي فكانتْ تجمعُ الشيءَ إلى الشيءِ حتى إذا اجتمعَ عِندها ما يكفي قسمته بينَ ذوي الحاجاتِ، وأما أمي فكانت لا تمسِك شيئًا (لا تستبقي شيئًا) إلى الغدِ...

وعلى الرغم من فقر الزبير، فقد كانت أسماءُ امرأةً سخيةَ النفس ذات جودٍ وكرمٍ، باذلةَ اليد، فكانت تقول لبناتها وأهلها: «أنفقن وتصدقن ولا تنظرن الفضل، فإنكنَّ إذا انتظرتنَّ الفضلَ لم تَفضُلنَ شيئًا، وإن تصدقتن لم تجدن فقده».

وعن أسماءَ -ا- قالت: «قلت يا رسول الله: ما لي مالٌ إلا ما أدخلَ عليَّ الزبير، أفأتصدَّق؟!»، قال: «تصدَّقي ولا توعي فيوعى عليكِ» (رواه الشيخان). (والإيعاء: جعل الشيء في الوعاء، وأصله الحفظ والإيعاء؛ أي: لا تمنعي ما في يدكِ، فتنقطعَ مادةُ بركةِ الرزق عنكِ، فإن مادة الرزق متصلةٌ باتصال النفقة، ومنقطعةٌ بانقطاعها).

قال النووي -رحمه الله-: «معناه الحث على النفقةِ في الطاعةِ، والنهي عن الإمساك والبخل».

وقد ورد المراد بذلك في روايات الحديث في الصحيحين وغيرهما، إذ قال ﷺ: «تصدَّقي ولا تُحصي فيُحصي الله عليكِ».

امرأةٌ لا تملكُ شيئًا من المال سوى ما أدخلَ عليها زوجُها، ومع ذلك بادرت بالسؤال عن جواز الصدقة من مال الزوج، فأجاز لها النبي -ﷺ- أن تتصدَّق، ولا تحصي ما تصدَّقت به فيحصي الله عليها رزقها.

لقد فتح النبيُ -ﷺ- لأسماء -ا- ولغيرها من النساء بابًا تدخلُ منه إلى سبيل أهل الصدقة، وقد كانت أسماء بحق عند حسن الظن بها، فرفضت أن تفعل شيئًا حتى تستأذنَ النبي -ﷺ-، وتعلمَ رأيهُ وحكمَه، وآثرتْ حكمَ الله -عز وجل- وحكمَ رسوله -ﷺ- على حكم البشر، وأبت أن تخضعَ لعلاقةِ رحمٍ أو صلةِ قربى تخالفُ حكمَ الله -عز وجل- وحكمَ رسوله -ﷺ-.

جاءت أمُّ أسماء بنت أبي بكر لزيارة ابنتها، فلم تسرع أسماءُ بصلةِ أمها حتى ذهبت إلى النبي -ﷺ- تطلب فتواهُ في هذا الشأن، فقالت أسماءُ -ا-: «قدِمَتْ عليَّ أمي وهي مشركةٌ في عهد رسول الله -ﷺ-، فاستفتيتُ رسولَ الله -ﷺ-، قلت: إن أمي قدمتْ وهي راغبةٌ، أفأصل أمي؟ قال: نعم صِلِي أمكِ» (رواه الشيخان).

وعن ابنِ الزبير قال: نزلت هذه الآية في أسماءَ، وكانت أمها يُقال لها قتيلة، جاءتها بهدايا فلم تقبلها حتى سألت النبي -ﷺ- فنزلت: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [سورة الممتحنة، آية: 8] (رواه أحمد وابن جرير وابن سعد، انظر سير أعلام النبلاء: [2/ 291]).

ويقول جل وعلا: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾ [لقمان، آية: 15].

ومن حفظ الله في الصِغَر حفظَه في الكِبَر، قال -ﷺ-: «احْفَظْ اللهَّ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللهَّ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَّ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهَّ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأمة لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهَّ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهَّ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ» الحديث.

وكانت أسماءُ إلى ذلكَ عاقلةً تحسنُ التصرفَ في المواقفِ الحرِجة...

من ذلك أنه لَمَّا خَرجَ الصديقُ مهاجرًا بصحبةِ رسول الله حملَ معَه ماله كله، ومقدارهُ سِتةُ آلافِ درهمٍ، ولم يترك لِعياله شيئًا، فلمَّا علم والدهُ أبو قحافة برحيله (وكان ما يزالُ مُشركًا) جاءَ إلى بيتهِ وقال لأسماء: والله إنِّي لأراهُ قد فجعكم بمالِه بعد أن فجعكم بنفسِه. فقالت له: كلا يا أبتِ، إنَّه قد ترَك لنا مالًا كثيرًا. ثم أخذتْ حصًى ووضعتهُ في الكوَّة (تجويف في الحائط أو نافذة صغيرة) التي كانوا يضعون فيها المال، وألقتْ عليه ثوبًا، ثم أخذتْ بيدِ جدها (كان مكفوفَ البصرِ) وقالت: يا أبتِ، انظرْ كم ترَك لنا من المال. فوضعَ يده عليه وقال: لا بأس... إذا كان تركَ لكم هذا كله فقد أحسنَ.

وقد أرادَت بذلك أن تسكنَ نفسَ الشيخ، وألا تجعله يبذل لها شيئًا من مالِه...

ذلك لأنها كانت تكرهُ أن تجعلَ لِمُشركٍ عليها يدًا (الصنيعة والمنة والمعروف) حتى لو كان جَدها...

ولن ينسى التاريخُ لأسماء رَجاحة عَقلها، وشدَّة حَزمِها، وقوةَ إيمانها وهي تلقى ولدَها عبدَ الله اللقاء الأخير. وذلك أنَّ ابنها عبدَ الله بن الزبيرِ بويعَ له بالخلافةِ بعدَ موتِ يزيدَ بن معاوية، ودانَت له الحجاز ومصرُ والعراقُ وخراسان وأكثرُ بلادِ الشَّام.

لكن بني أميَّة ما لبثوا أنْ سيَّروا لحَربه جيشًا لجبًا (جيشا كثيفًا جرارًا) بقيادةِ الحجاجِ بن يوسُف الثقفيِّ، فدَارت بين الفريقين معاركُ طاحنة أظهرَ فيها ابنُ الزبيرِ من ضُروبِ البطولة ما يليق بفارسٍ كمِي (البطل الشجاع) مثلِه.

غيرَ أنَّ أنصارَه جعلوا ينفضُّون عنه شيئًا فشيئًا، فلجأ إلى بيتِ الله الحرام، واحتمى هو ومن معهُ في حمى الكعبةِ المُعظمةِ....

قال عروةُ بنُ الزبير --: «دخلت أنا وأخي قبل أن يُقتَل على أُمنا بعشر ليالٍ وهي وجعةٌ، فقال عبدُ الله: كيف تجدينكِ؟ قالت: وجعةٌ. قال: إن في الموت لعافية. قالت: لعلك تشتهي موتي، فلا تفعل. وضحكت وقالت: والله ما أشتهي أن أموت حتى تأتي على أحد طرفيك، إما أن تُقتلَ فأحتسبُك، وإما أن تظفر فتقر عيني، إياك أن تعرض على خطة فلا توافق فتقبلها كراهية الموت. قال: وإنما عني أخي أن يُقتَل فيحزنُها

ذلك، وذكر أنها قالت لابنها: يا بني، عِش كريمًا، ومُت كريمًا، لا يأخذكَ القوم أسيرًا» (سير أعلام النبلاء: [2/293-9]).

وقبيلَ مصرعِهِ بساعات دخلَ على أمِّه أسماءَ (كانت عجوزًا فانية قد كفَّ بصرها) فقال: السلامُ عليك يا أمَّه (يا أماه) ورحمة الله وبركاتُه.

فقالت: وعليك السلام يا عبد الله، ما الذي أقدَمَك في هذه الساعةِ، والصخورُ التي تقذفها مَنجنيقاتُ (جمع منجنيق: وهو آلة حربية تقذف بها الصخور ونحوها على المعاقل والحصون) الحجَّاجِ على جُنودكَ في الحرم تهزُّ دُورَ مكةَ هزًّا؟!

قال: جئت لأستشِيرك.

قالت: تستشيرني؟! في ماذا؟!

قال: لقد خذلني الناسُ وانحازوا عني رَهبةً من الحجاجِ أو رغبةً بما عنده، حتى أولادي وأهلي انفضُّوا عني، ولم يبقَ معي إلا نفرٌ قليلٌ من رجالي، وهم مهما عظمَ جلدُهم (ثبرهم واحتمالهم) فلن يصبروا إلا ساعةً أو ساعتين، ورُسلُ بني أمية يفاوضونني على أن يعطوني ما شئتُ من الدنيا إذا أنا ألقيتُ السلاحَ وبايعتُ عبد الملك بن مروان، فما ترين؟

فعلا صوتها وقالت: الشأنُ شأنكَ يا عبد الله، وأنت أعلمُ بنفسِك، فإن كنتَ تعتقد أنك على حقٍّ، وتدعو إلى حقٍّ، فاصبر وجالِد كما صبرَ أصحابُك الذين قُتِلوا تحتَ رايتك، وإن كنتَ إنَّما أردتَ الدنيا فلبئسَ العبدُ أنت: أهلكتَ نفسكَ، وأهلكتَ رجالك.

قال: ولكنِي مقتولٌ اليومَ لا مَحالة.

قالت: ذلك خيرٌ من أن تسلِّمَ نفسك للحجاج مُختارًا، فيلعبَ برأسِك غلمانُ بني أمية.

قال: لست أخشى القتلَ، وإنما أن يُمثِّلوا بي.

قالت: ليس بعد القتل ما يخافه المرءُ، فالشاةُ المذبوحَة لا يؤلمُها السَّلخ.

فأشرَقتْ أساريرُ وجهه (محاسن وجهه) وقال: بُوركتِ من أمٍّ، وبُوركت مناقبكِ (خلالك وخصالك وشمائلك) الجليلة، فأنا ما جئت إليكِ في هذه الساعةِ إلا لأسمعَ منكِ ما سمعتُ، والله يعلمُ أنني ما وَهنتُ ولا ضَعفتُ، وهو الشهيدُ عليَّ أنني ما قمتُ بما قمت به حُبًّا بالدنيا وزينتها، وإنما غضبًا لله أن تُستباح مَحارمُه، وها أنا ذا ماضٍ إلى ما تحبينَ، فإذا أنا قُتِلتُ فلا تحزني عليَّ وسَلمي أمركِ لله.

قالت: إنما أحزنُ عليكَ لو قتِلتَ في باطلٍ.

قال: كوني على ثقةٍ بأنَّ ابنكِ لم يتعمَّد إتيانَ مُنكرٍ قط، ولا عَمِلَ بفاحشةٍ قط، ولم يَجُر في حُكمِ الله، ولم يغدر في أمانٍ، ولم يتعمدْ ظلمَ مُسلمٍ ولا معاهد (الذميُّ) ولم يكن شيء عنده آثر من رضا الله -عزَّ وجلَّ-. لا أقولُ ذلك تزكية لنفسِي، فالله أعلم منِّي بي، وإنما قلته لأدخِلَ العزاءَ (الصبر) على قلبك.

فقالت: الحمد لله الذي جعلكَ على ما يُحبُّ وأحِبُّ. اقترب مني يا بُني لأتشممَ رائحتكَ وألمسَ جسدكَ فقد يكون هذا آخر العهدِ بك.

فأكبَّ عبد الله على يديها ورجليها يوسعهما لثمًا، وأجالت هي أنفها في رأسِه ووجههِ وعُنقهِ تتشممُه وتقبله، وأطلقت يديها تتلمس جَسَده، ثم ما لبثتْ أن ردتهما عنهُ وهي تقول: ما هذا الذي تلبسُه يا عبدَ الله؟

قال: دِرعي.

قالت: ما هذا يا بُني لباس مَن يريدُ الشهادَةَ.

قال: إنما لبستها لأطيبَ خاطركِ، وأسكنَ قلبك.

قالت: انزعها عَنك، فذلِك أشد لحميتك وأقوى لوثبتِك وأخفُّ لحركتِك، ولكن البس بدلًا منها سراويلَ مضاعفة، حتى إذا صُرِعتَ لم تنكشفْ عورَتك.

نَزعَ عبدُ الله بنُ الزبير دِرعه، وشدَّ عليه سراويله، ومَضى إلى الحَرم لمواصلةِ القتال وهو يقول: لا تفترِي عن الدعاءِ لي يا أمه.

فرفعت كفيها إلى السماءِ وهي تقول: اللهم احم طولَ قيامهِ وشدَّةَ نحيبه في سوادِ الليلِ والناسُ نيام، اللهم ارحَم جوعَه وظمَأه في هواجر المدينةِ ومكةَ وهو صائمٌ، اللهم ارحم بِره بأبيه وأمِّه، اللهم إني قدْ سلمته لأمرِك، ورضيتُ بما قضيتَ له، فأثبني عليه ثوابَ الصَّابرين.

ولله دَرُّ الشَّاعر مُصْطَفَى لُطْفِي المَنْفَلُوطِي، إذ صاغ هذه القصة في شكل بديع مؤثِّر:

إن أسماء في الورى خيرُ أُنثى	صنعت في الوداع خير صنيعِ
جاءَها ابن الزبيرِ يسحبُ دِرعًا	تحتَ درعٍ منسوجةٍ من نجيعِ
قال يا أُمِّ قد عييتُ بأمري	بين أسرٍ مُرٍّ وقتلٍ فظيع
خانني الصحبُ والزمان فما لي	صاحبٌ غيرَ سَيفي المطبوعِ
وأرى نجمي الذي لاحَ قبلًا	غابَ عني ولم يَعد لِطلوعِ
بذل القومُ لي الأمانَ فما لي	غيره إن قبلته من شفيع
فأجابت والجفن قفر كلآن لم	يكُ من قبل موطنًا للدموع
واستحالت تلك الدموعُ بُخارًا	صاعدًا من فؤادها المصدوع

لا تسـلم إلا الحيـاة وإلا	هيكلًا شأنه وشأن الجذوع
إن موتًا في ساحة الحربِ خيرٌ	لكَ من عيش ذلةٍ وخضوع
إن يكن قد أضاعك الناس فاصبر	وتثبت فالله غير مضيع
مت هامًا كما حييتَ هامًا	وَاحْيَ في ذكرِكَ المجيدِ الرفيعِ
ليس بين الحياةِ والموت إلا	كرةٌ في سوادِ تلك الجموع
ثم قـامت تضـمـه لوداعٍ	هائل ليس بعدَهُ من رُجوع
لمست دِرعه فقالت لعهدي	بك يا ابن الزبيرِ غيرَ جزوع
إن بأس القضاءِ في الناس بأسٌ	لا يُبالي ببأس تلك الدروع
فنضاها عَنهُ وفرَّ إلى الموتِ	بدرعٍ من الفخارِ منيعِ
وأتى أمه النعي فجادَت	بعدَ لأيٍّ بدمعِها الممنوع

خرج عبدُ الله بنُ الزبير إلى المسجد الحرام بمكة، وبات يصلي طوالَ ليلته ثم جلسَ فاحتبى بحميلة سيفه فأغفى ثم انتبه مع الفجر، ثم أذن وتوضأ فصلى ركعتي الفجر، ثم أُقِيمَت الصلاة فصلى الفجر، ثم قرأ سورة (ن) حرفًا حرفًا ثم سلَّمَ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وحرَّص أصحابه على القتال ثم نهضَ وحملَ وحملوا، فجاءته آجرةٌ فأصابته في وجهه فارتعش لها فلما وجد سخونةَ الدم يسيل من وجهه قال:

لَسْنَا عَلَى الأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُومُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا يَقْطُرُ الدَّمُ

ثم سقط على الأرض فأسرعوا إليه فقتلوه، وجاؤوا إلى الحجَّاج فأخبروه فخر ساجدًا وارتجت مكةُ بالبكاء عليه -رضي الله عنه ورحمه-.

وخطبَ الحجاجُ في الناس فقال: أيها الناس، إن عبدَ الله بنَ الزبير كانَ خيارَ هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازعها أهلَها وألحد في الحرم، فأذاقه الله من عذابه الأليم، وإن آدمَ كان أكرمَ على الله من ابن الزبير، وكان في الجنة وهي أشرفُ من مكة، فلما خالف أمر الله وأكل من الشجرة أُخرِجَ منها، قوموا إلى صلاتكم.

فقام له عبدُ الله بنُ عمر -- فقال: أما والله لو شئت أن أقول لك كذبت لقلت، والله إن ابنَ الزبير لم يُغيِّر كتاب الله، بل كان قوَّامًا صوَّامًا عاملًا بالحق.

ثم بعث الحجاج برأسه إلى عبد الملك بن مروان وصلبه منكسًا في ثنية الحجون، فجاءته أُمُّه حتى وقفت عليه فدعت له طويلًا ثم انصرفت، فجاءه عبدُ الله بنُ عمر -- فوقف عليه فقال: «السلامُ عليك أبا خبيب، السلامُ عليك أبا خبيب، السلامُ عليك أبا خبيب، أما والله لقد كنتُ أنهاك عن هذا، أما والله إن كنتَ ما علمتُ صوامًا قوامًا وصولًا للرحم، أما والله لأمةٌ أنتَ شرُّها لأمةُ خيرٍ. ثم التفت إلى أصحابه وقال: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟!».

قال ابن عباس --: «أما أبوه فحواري النبي -ﷺ- (يريد الزبير)، وأما جده فصاحب الغار (يريد أبو بكر)، وأما أُمُّه فذات النطاق (يريد أسماء)، وأما خالته فأم المؤمنين (يريد عائشة)، وأما عمته فزوج النبي -ﷺ- (يريد خديجة)، وأما عمة النبي -ﷺ- فجدته (يريد صفية) ثم عفيف في الإسلام قارئٌ للقرآن» (رواه البخاري).

لكن الحجاج لم يَعتبِر بهذا النسب الطاهر، ولا أقام وزنًا لهذه القربى السامية والصلة الرفيعة، فحاربَ ابن الزبير -- وأمسك به وقتله ثم صلبه على عقبةٍ بمكة.

ومع كل هذا الجبروت والظلم وقتل الحجاج لابن الزبير، لم تخضع أسماء -ا- له ولا ذلَّت نفسها لأحد وظلَّت صامدةً عزيزةً حتى آخر عمرها.

يُروى أن الحجاج لما قَتل ابنَ الزبير دخل على أسماء وقال لها: يا أُمَّه، إن أمير المؤمنين وصاني بكِ، فهل من حاجة؟ قالت: «لستُ لك بأُمٍّ، ولكني أُمُّ المصلوب على رأس الثنية، وما لي من حاجة». (سير أعلام النبلاء: [2/294]).

وذكر الإمام مسلم -رحمه الله- أن الحجاج أرسل إلى أسماء بنت أبي بكر فأبت أن تأتيه، فأعاد عليها الرسول: لتأتينِّي أو لأبعثنَّ إليكِ من يسحبكِ بقرونكِ.

قال: فأبت وقالت: والله لا آتيك حتى تبعث إليَّ من يسحبني بقروني.

قال: فقال: أروني سِبْتَيَّ (السبت: هوَ النعل التي لا شعر عليها، والمراد هنا النعال السِبتية).

فأخذ نعليه ثم انطلق يتوذَّف حتى دخل عليها فقال: كيف رأيتِني صنعت بعدو الله؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك، بلغني أنك تقول له يا بن ذات النطاقين! أنا والله ذات النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله -ﷺ- وطعام أبي بكر -- من الدوابِّ، وأما الآخر فنطاق المرأة الذي لا تستغني عنه. أما إن رسول الله -ﷺ- حدَّثنا: «إن في ثقيف كذابًا» الكذاب هو المختار بن أبي عبيد الثقفي كان شديد الكذب، «ومبيرًا» (أي مهلكًا). فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبيرُ فلا إخالك إلا إياه.

قال: «فقام عنها ولم يراجعها» (رواه مسلم).

وعن يحيى بن يعلى التميمي عن أبيه قال: دخلت مكة بعد قتل ابن الزبير بثلاث وهو مصلوب، فجاءته أُمُّه عجوزٌ طويلةٌ عمياء، فقالت للحجاج: أما آن للراكب أن ينزل؟

فقال: المنافق؟

قالت: والله ما كان منافقًا؛ كان صوَّامًا قوَّامًا برًّا.

قال: انصرفي يا عجوز فقد خَرِفتِ.

قالت: لا والله ما خرفت منذ سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «في ثقيف كذابٌ ومُبير». (ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: [260/ 9] مختصرًا ونسبه للطبراني).

لقد بلغ من شأنها -ا- أن تقف في وجه طاغيةٍ كالحجاج بن يوسف الثقفي؛ ذلك الذي استباحَ الحرمَ الأمين وأغرقه في بحرٍ من الدماء الطاهرة الزكيةِ.

وعن ابن أبي مليكة قال: «دخلت على أسماء بعدما أُصيب ابن الزبير فقالت: بلغني أن هذا صَلبَ عبدَ الله، اللهم لا تمتني حتى أوتى به فأُحنِّطه وأُكفِّنه. فأتيت به بعد فجعلت تُحنِّطته بيدها وتُكفِّنه بعدما ذهب بصرها، وصلَّت عليه وما أتت عليه جمعة إلا ماتت» (سير أعلام النبلاء: [295/ 2]).

ولم يَمضِ على مصرع ابنها غيرُ بضعة عشَر يومًا حتى كانت أمُّه أسماء بنتُ أبي بكرٍ قد لحقت به، وقد بلغَت من العُمُر مائةَ عامٍ، ولم يسقط لها سنٌّ ولا ضرسٌ، ولم يَغب من عقلها شيءٌ.

وهكذا انتهت حياةُ أسماء بنت أبي بكر الصديق، أمُ عبد الله بن الزبير، وزوجُ حواري رسول الله -ﷺ-، ذات النطاقين، وآخرُ المهاجرات وفاةً.

انتهت حياتها وانتقلت إلى جوار ربها، لتترك للمؤمنات دروسًا خالدةً ومواعظ غالية، لقد رحلت أسماء -ا- بعد أن تركت ميراثًا هائلًا من الثبات على المبدأ يتعلَّم منه الناس جيلًا بعد جيل.

تعلِّمنا أسماء أنه مَنْ ظَفِرَ بالحَسَبِ وَالنَّسَبِ، فقد ظَفِرَ بِكَنْزٍ ثَمِينٍ، قَلَّمَا يَجُودُ الزَّمَانُ بِمِثْلِه، وأنَّ مَنْ عُمِّرَ، مع سلامة البَدَن، وَصِحَّةِ الإيمان واليقين، فقد استحقَّ الرَّحمة والغفران.

سيظلُّ اسم أسماء مهما تعاقب الزمان؛ يُذكِّرُ بالجهاد والصبر والتقوى، وسيظلُ لها لقب «ذات النطاقين»، في سجل التاريخ وأسفار الخالدين.

فرضي الله -تعالى- عنها وعن أبيها وزوجها وأبنائها في الخالدين، وألحقنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

نسِيبَةُ المَازِنِيَّةُ

«مَا التَفَتُّ يَومَ أُحُدٍ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا
إلا وَرَأَيتُ أُمَّ عُمَارَةَ تُقَاتِلُ دُونِي»

مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله.

«أنتم على موعدٍ مع رسول الله، عند العقبة في آخر الهزيع[1] الأوَّل من اللَّيل».

أسرَّ مصعب بن عميرٍ بهذه الكلمة إلى واحدٍ من مسلمي «يثرب»، فسرى الخبر بينهم سريان النَّسيم في سرعةٍ، وخفَّةٍ، وهدوءٍ، وأحيط به المسلمون الذين تسلَّلوا من المدينة، واندسُّوا بين جموع حُجَّاج المشركين الوافدين على مكَّة من كلِّ صوبٍ، وأقبل اللَّيل فاستسلم حجَّاج المشركين إلى الكرى[2]، وجعلوا يغُطُّون في نوم عميقٍ بعد يومٍ جاهدٍ ناصبٍ[3] قضوه في التَّطواف حول الأوثان.. والذَّبح للأصنام.. لكنَّ أصحاب مصعب بن عميرٍ من مسلمي «يثرب» لم يغمض لهم جفنٌ.. وكيف لجفونهم أن تغمض وقلوبهم تخفق بين فرحة باللِّقاء الذي قطعوا من أجله الفَيَافِي[4] والقِفَار[5] وأفئدتهم تكاد تطير من بين ضلوعهم شوقًا لرؤية نبيِّهم الحبيب -صلوات الله وسلامه عليه-؟! فقد آمن به أكثرهم قبل أن يسعدوا بلقياه، وتعلَّقوا به قبل أن تكتحل أعينهم بمرآه..

وفي آخر الهزيع الأوَّل من أوسط أيَّام التَّشريق، وعند «العقبة» في «منى» تمَّ اللِّقاء الكبير في نجوةٍ[6] من قريشٍ، فلمَّا تقدَّم اثنان وسبعون رجلًا من النَّبيِّ -صلوات الله وسلامه عليه-، ووضعوا أيديهم في يديه واحدًا بعد آخر مبايعين على أن يمنعوه ممَّا يمنعون منه نساءهم وأولادهم، ولَّما انتهى الرِّجال من البيعة تقدَّمت امرأتان فبايعتا على ما بايع عليه الرِّجال، ولكن من غير مصافحةٍ، ذلك لأن الرَّسول -عليه الصَّلاة والسَّلام- لا يصافح النِّساء. وقد كانت إحدى هاتين المرأتين تُعرف بأمِّ منيعٍ[7]، أما الأخرى فهي نسيبة بنت كعب المازنيَّة المكنَّاة بأمِّ عمارة.

عادت أمُّ عمارة إلى «يثرب» فرِحةً بما أكرمها الله به من لقاء الرَّسول الأعظم، عاقدةً العزم على الوفاء بشروط البيعة، ثمَّ مضت الأيام سراعًا، حتَّى كان يوم «أُحُدٍ»، وكان لأمِّ عمارة فيه شأنٌ وأيُّ شأنٍ!

خرجت أمُّ عمارة إلى «أُحُدٍ» تحمل سقاءها لتروي ظمأ المجاهدين في سبيل الله، ومعها لفائفُها لتضمِّد[8] جراحهم... ولا عجب، فقد كان لها في المعركة زوجٌ وثلاثة أفئدةٍ:

هم: رسولُ الله -صلوات الله وسلامه عليه-، وولدها حبيب[9]، وعبد الله.

وذلك بالإضافة إلى إخوتها من المسلمين الذَّائدين[10] عن دين الله المنافحين عن رسول الله.

ثمَّ كان ما كان يوم «أُحُدٍ»، فلقد رأت أمُّ عمارة بعينيها كيف تحوَّل نصر المسلمين إلى هزيمةٍ كبرى،

وكيف أخذ القتل يشتدُّ في صفوف المسلمين فيتساقطون على أرض المعركة شهيدًا تلو آخر، وكيف زُلزلت الأقدام، فتفرَّق الرِّجال عن رسول الله حتَّى لم يبقَ معه إلا عشرةٌ أو نحوٌ من عشرةٍ، ممَّا جعل صارخ الكفَّار ينادي:

لقد قُتل محمَّدٌ... لقد قُتل محمَّدٌ...

عند ذلك ألقت أمُّ عمارة سقاءها، وانبرت إلى المعركة كالنَّمرة التي قُصد أشبالها بشرٍّ.

ولنترك لأمِّ عمارة نفسها الحديث عن هذه اللّحظات الحاسمات، فليس كمثلها من يستطيع تصويرها بدقّةٍ وصدقٍ.

قالت أمُّ عمارة:

خرجت أوَّل النَّهار إلى «أُحُدٍ» ومعي سقاءٌ أسقي منه المجاهدين حتَّى انتهيت إلى رسول الله -ﷺ-، والدَّولة والرِّيح[11] له ولمن معه، ثمَّ ما لبث أن انكشف المسلمون عن رسول الله -ﷺ- فما بقي إلا في نفرٍ قليلٍ ما يزيدون على العشرة، فملت إليه أنا وابني وزوجي، وأحطنا به إحاطة السِّوار بالمعصم، وجعلنا نذود عنه بسائر ما نملكه من قوَّةٍ وسلاحٍ، ورآني الرَّسول الكريم -ﷺ- ولا تُرس معي أقي به نفسي من ضربات المشركين، ثمَّ أبصر رجلًا مولِّيًا[12] ومعه ترسٌ فقال له: «القِ تُرسك إلى من يقاتل»، فألقى الرَّجل تُرسه ومضى، فأخذته وجعلت أتترَّس به عن الرَّسول -ﷺ-. وما زلت أضارب عن النَّبيِّ بالسيف وأرمي دونه بالقوس حتَّى أعجزتني الجراح. وفيما نحن كذلك أقبل «ابن قمئة» كالجمل الهائج وهو يصيح:

أين محمَّد؟ دلُّوني على محمَّدٍ.

فاعترضتُ سبيله أنا ومصعب بن عميرٍ، فصرع مُصعبًا بسيفه وأرداه قتيلًا، ثمَّ ضربني ضربة خلَّفت في عاتقي جُرحًا غائرًا، فضربته على ذلك ضرباتٍ، ولكنَّ عدوَّ الله كانت عليه درعان[13].

ثمَّ أتبعت نسيبة المازنيَّة تقول:

وفيما كان ابني يُناضل عن رسول الله -ﷺ- ضربه أحد المشركين ضربةً كادت تقطع عضده، وجعل الدَّم يتفجَّر من جرحه الغائر، فأقبلتُ عليه، وضمَّدت جرحه، وقلت له: انهض يا بنيَّ وجالد[14] القوم. فالتفت إليَّ الرَّسول -صلوات الله وسلامه عليه- وقال: ومن يُطيق ما تطيقين
يا أمَّ عمارة؟ ثمَّ أقبل الرَّجل الذي ضرب ابني، فقال الرَّسول -عليه الصَّلاة والسَّلام-: «هذا ضارب ابنك يا أمَّ عمارة». فما أسرعت أن اعترضت سبيله وضربته على ساقه بالسَّيف، فسقط صريعًا على الأرض، فأقبلنا عليه نتعاوره[15] بالسُّيوف ونطعنه بالرِّماح حتَّى أجهزنا[16] عليه، فالتفت إليَّ النَّبيُّ -ﷺ- مبتسمًا وقال: لقد اقتصصتِ منه يا أمَّ عمارة، والحمد لله الذي أظفرك به، وأراك ثأرك بعينك.

لم يكن ولدَا أمِّ عمارة أقلَّ شجاعةً وبذلًا من أمِّهما وأبيهما، ولا أدنى تضحيةً وفداءً منهما، فالولد سرُّ أمِّه وأبيه، وصورةٌ صادقةٌ عنهما.

حدَّث ابنها عبد الله قال:

شهدت «أُحُدًا» مع رسول الله -ﷺ-، فلمَّا تفرَّق النَّاس عنه دنوت منه أنا وأمِّي نذبُّ[17] عنه، فقال: ابن أمِّ عمارة؟

قلت: نعم.

قال: ارم....

فرميت بين يديه رجلًا من المشركين بحجر فوقع على الأرض، فما زلت أعلوه بالحجارة حتَّى جعلت عليه منها حملًا، والنَّبيُّ -عليه السَّلام- ينظر إليَّ ويبتسم، وحانت منه التفاتةٌ فرأى جُرح أمِّي على عاتقها يتصبَّب منه الدَّم فقال: «أمَّك... أمَّك... اعصب جرحها. بارك الله عليكم أهل بيتٍ، لمقام أمِّك خيرٌ من مقام فلانٍ وفلانٍ، رحمكم الله أهل بيتٍ».

فالتفتت إليه أمِّي وقالت: ادعُ الله لنا أن نرافقك في الجنَّة يا رسول الله.

فقال: اللهم اجعلهم رفقائي في الجنَّة.

فقالت أمِّي: ما أبالي بعد ذلك ما أصابني في الدُّنيا.

ثمَّ عادت أمُّ عمارة من «أُحُدٍ» بجرحها الغائر وهذه الدَّعوة التي دعا لها بها الرَّسول -ﷺ-.

وعاد النَّبيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- من «أُحُدٍ» وهو يقول:

«ما التفتُّ يوم أحدٍ يمينًا ولا شمالًا إلا ورأيت أمَّ عمارة تقاتل دوني».

تمرست أمُّ عمارة يوم «أُحُدٍ» على القتال؛ فأتقنته، وذاقت حلاوة الجهاد في سبيل الله؛ فما عادت تطيق عنه صبرًا.

وقد كُتب لها أن تشهد مع الرَّسول -صلوات الله وسلامه عليه- أكثر المشاهد، فحضرت معه الحديبية، وخيبرًا، وعمرة القضيَّة[18] وحُنينًا، وبيعة الرِّضوان.

ولكنَّ ذلك كله لا يعدُّ شيئًا إذا قيس بما كان منها يوم «اليمامة» على عهد الصِّدِّيق -I وعنه-.

تبدأ قصة أمِّ عمارة مع يوم «اليمامة» منذ عهد الرَّسول -صلوات الله وسلامه عليه-، فقد بعث الرَّسول الأعظم -ﷺ- ابنها حبيب بن زيدٍ برسالة إلى مسيلمة الكذَّاب، فغدر مسيلمة بحبيبٍ وقتله قتلةً تقشعرُّ منها الجلود. ذلك أن مسيلمة قيَّد حبيبًا ثمَّ قال له: أتشهد أن محمَّدًا رسول الله؟

فقال: نعم.

فقال مسيلمة: أتشهد أنِّي رسول الله؟

فقال: لا أسمع ما تقول.

فقطع منه عضوًا.

ثمَّ ما زال مسيلمة يعيد عليه السُّؤال نفسه، فيردُّ عليه الجواب نفسه، لا يزيد عليه ولا ينقص.

وكان في كلِّ مرَّة يقطع منه عضوًا حتَّى فاضت روحه الطَّاهرة، وذلك بعد أن ذاق من العذاب ما تتزلزل منه الصُّمُّ الصِّلاب[19].

نعى النَّاعي حبيب بن زيدٍ إلى أمِّه نسيبة المازنيَّة فما زادت على أن قالت:

من أجل مثل هذا الموقف أعددته، وعند الله احتسبته، لقد بايع الرَّسول -ﷺ- ليلة العقبة[20] صغيرًا، ووفَّى له اليوم كبيرًا، ولئن أمكنني الله من مسيلمة لأجعلنَّ بناته يلطمن الخدود عليه.

لم يبطئ اليوم الذي تمنَّته نسيبة كثيرًا، إذ أذَّن مؤذِّن أبي بكرٍ في المدينة أن حيَّ على قتال المتنبِّئ الكذَّاب مسيلمة. فمضى المسلمون يحثُّون الخطى إلى لقائه، وكان في الجيش أمُّ عمارة المجاهدة الباسلة وولدها عبد الله ابن زيدٍ.

ولمَّا التقى الجمعان وحمي وطيس[21] المعركة كان يترصَّد لمسيلمة نفرٌ من المسلمين وعلى رأسهم أمُّ عمارة التي تريد أن تنتقم لابنها الشَّهيد، ووحشيُّ بن حرب[22] قاتِل حمزة يوم «أُحُدٍ»، فقد كان يريد أن يقتل شرَّ النَّاس وهو مؤمنٌ، بعد أن قتل أحد أخيار النَّاس وهو مشركٌ.

لم تستطع أمُّ عمارة أن تصل إلى مسيلمة بعد أن قُطعت يدها في المعركة، وأثخنتها[23] الجراح،

لكن وحشي بن حرب، وأبا دجانة صاحب سيف رسول الله -ﷺ- وصلا إلى مسيلمة وضرباه عن يد واحدةٍ، فقد طعنه وحشيٌّ بالحربة، وضربه أبو دجانة بالسَّيف، فخرَّ صريعًا في طرفة عينٍ.

عادت أمُّ عمارة بعد «اليمامة» إلى المدينة بيد واحدة ومعها ابنها الوحيد.

أمَّا يدها الأخرى فقد احتسبتها[24] عند الله كما احتسبت من قبل ولدها الشَّهيد. ولم لا تحتسبها؟! ألم تقل للرَّسول -عليه الصَّلاة والسَّلام-: ادع الله لنا أن نرافقك في الجنَّة فقال الرَّسول -صلوات الله وسلامه عليه-: «اللَّهمَّ اجعلهم رفاقي في الجنَّة» فقالت: ما أبالي بعد ماذا أصابني في الدُّنيا؟

رضي الله عن أمِّ عمارة وأرضاها، فقد كانت طرازًا فريدًا بين النِّساء المؤمنات، وأنموذجًا فذًّا بين المجاهدات الصَّابرات(*).

الهزيع الأول من الليل: الثلث الأول منه.

الكرى: النوم.

جاهد ناصب: متعب بسبب ما بذل فيه من جهد.

الفَيَافِي: الصحاري الواسعة.

القِفار: الأراضي الجرداء.

النجوة: البعد عن الأمر حتى يظن أنه لن يلحقه أحد.

أمُّ منيع: هي أسماء بنت عمرو بن عدي بن ياسر الأنصارية السلمية، أمُّ الصحابي معاذ بن جبل.

تضمد: تداوي جراحهم وتربطها بالضماد، وهو رباط الجرح.

حبيب بن زيد: انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة».

الذَّائدين: المدافعين عن دين الله.

الدَّولة: النصر والغلب، والرِّيح: القوة.

موليًا: فارًّا هاربًا.

الدرع: ثوب من الحديد يلبسه المحارب ليحمي صدره.

المجالدة: المضاربة بالسيف.

نتعاوره: نضربه واحدًا بعد آخر.

أجهزنا عليه: قضينا عليه وأهلكناه.
نذب: ندافع.
عمرة القضية أو عمرة القضاء: هي العمرة التي اعتمرها النبي -ﷺ- وأصحابه بعد صلح الحديبية.
الصُّم الصلاب: الصخور الصلبة.
ليلة العقبة: ليلة بيعة العقبة.
الوطيس: التنور، ويقال حمي وطيس المعركة: التهبت واشتدت.
وحشيُّ بن حرب: انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة».
أثخنتها الجراح: أوهنتها وأضعفتها.
احتسبتها عند الله: طلبت أجرها عليها من الله.
(*) للاستزادة من أخبار نسيبة المازنيَّة انظر:
1 - الطبقات الكبرى لابن سعد: 301/ 8.
2 - الاستيعاب «على هامش الإصابة» : 475/ 4.
3 - الإصابة: 479/ 4 «الترجمة» 1426.
4 - صفة الصفوة: 34/ 2.
5 - إمتاع الأسماع: 148/ 1.
6 - تهذيب التهذيب: 455/ 12.

أسماء بنت يزيد

الخطيبة المفوَّهة

صحابية متميِّزة ضربت مثالًا رائعًا في الإيمان والصبر والعلم، إنَّها الصحابية الجليلة أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية -ا- وافدة النساء إلى المصطفى -ﷺ-.

يعرِّفنا الحافظ الإمام ابن حجر العسقلاني بهذه الصحابية الكريمة في كتابه (الإصابة في تمييز الصحابة)، فيقول: هي أسماء بنت يزيد بن السكن بن رافع بن امرئ القيس الأنصارية الأسدية ثم الأشهلية.

ومن الجدير بالذكر أن نسَب أسماء بنت يزيد -ا- يلتقي مع نسَب الصحابي سعد بن معاذ -ـ في جدِّهما امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل.

أسلمت أسماء على يد مصعب الخير أو مصعب بن عمير، كما ذكر ابن سعد في «الطبقات» عن عمرو بن قتادة -ـ قال: أول من بايع النبي -ﷺ- أم سعد بن معاذ كبشة بنت رافع، وأسماء بنت يزيد ابن السكن، وحواء بنت يزيد بن السكن. وكانت أسماء -رضوان الله عليها- تعتز بهذا السبق إلى المبايعة فتقول: «أنا أول من بايع رسول الله -ﷺ- »، ولذلك قالت أسماء: بايعنا رسول الله فأخَذَ علينا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. [سورة الممتحنة، آية: 12].

اشتهرت أسماء بفصاحتها وسُميت بـ «خطيبة النساء». يروي المؤرخ ابن الأثير في كتابه «أُسد الغابة»: أتت أسماء النبي -ﷺ-، وهو بين أصحابه فقالت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، إن الله بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك. وإنَّا معشر النساء محصوراتٌ مقصوراتٌ قواعدُ بيوتكم ومَقضى شهواتكم وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فُضِّلتم علينا بالجُمَع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله، وإنَّ الرجل إذا خرج حاجًّا أو معتمرًا أو مجاهدًا حفظنا لكم أموالكم وغزلنا أثوابكم وربينا لكم أولادكم. أفما نشارككم في هذا الأجر والخير؟

فالتفت النبي -ﷺ- إلى أصحابه بوجهه كلِّه ثم قال: هل سمعتم مقالة امرأة قَط أحسن من مساءلتها في أمر دينها من هذه؟

فقالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا.

فالتفت النبي -ﷺ- إليها فقال: انصرفي يا أسماء وأعْلِمي مَنْ وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها (أي حسن المصاحبة في الحياة الزوجية)، وطلبها لمرضاته، واتباعها لموافقته، يعدل كل ما ذكرتِ للرجال.

فانصرفت المرأة وهي تهلِّل وتقول وتردد: «يعدل كل ما ذكرت، يعدل كل ما ذكرت للرجال».

وبذلك.. نعرف أنَّ أسماء -رضي اللهُ عنها- نشأت في أسرةٍ عُرف أفرادها بالتضحية والجهاد، فأبوها هو يزيد بن السكن بن رافع الأنصاري الذي استُشهد يوم أُحد، وابنُ عمها هو معاذ بن جبل -رضي اللهُ عنه- ،

وفي تلك المعركة (معركة أحد) أثخنت الجراح زياد بن السكن عمَّ أسماء، فقال الرسول -ﷺ-: «أَدنوه مني»، فوسده قدمه فمات شهيدًا وخدُّه على قدم رسول الله -ﷺ-، كما استُشهد في المعركة ذاتها أخوها عامر بن يزيد بن السكن الذي جعل جسده تُرسًا يدافع به عن رسول الله -ﷺ-، فنال الشهادة في سبيل الله. ومن عجيب إيمانها وصبرها أنه لما بلغها استشهادهم خرجت تنظر إلى سلامة رسول الله -ﷺ- وهو قادم من أُحد، وعندما رأته سالمًا قالت: كل مصيبة بعدك جلل (أي هينة).

كما شهدتْ أسماء غزوة الخندق وغزوة خيبر، وخرجت مع النبي -ﷺ- في غزوة الحديبية، وبايعت بيعة الرضوان.

وكانت أسماء تطوي في صدرها التطلع إلى المشاركة في الجهاد، ولكن الظرف لم يكن حينئذ يتطلب ذلك، ومضت الأيام والأعوام، وأقبلت السنة الثالثة عشرة للهجرة، وأقبلت معها معركة «اليرموك»، وهي المعركة العصيبة الشديدة، التي دارت رحاها على أرض العرب، وفيها أعطى المسلمون أعداءهم الروم درسًا لم ينسوه قط.

وفي هذه المعركة شاركت المرأة المسلمة بنصيب كبير في الجهاد، وكانت أسماء بنت يزيد من بين المشاركات مع أخوات لها وشقيقات، تبذل كل جهدها، فتناول السلاح، وتسقي الماء، وتضمد الجراح، وتشد من عزائم المجاهدين.

ولكن الموقف يشتد والمعركة تتأزم والحرب تتصاعد والعدو يتبجَّح، وحينئذ نسيت أسماء بنت يزيد أنها امرأة، ولم تتذكر إلا أنها مسلمة مؤمنة، تستطيع أن تجاهد بما في وسعها وطاقتها، ولم تجد أمامها إلا عمود خيمة، فحملته، وانغمرت به في الصفوف، وأخذت تضرب به أعداء الله ورسوله ذات اليمين وذات الشمال، حتى قتلت تسعة رجال من الأعداء، كما تحكي ذلك المصادر التاريخية.

وخرجت أسماء من المعركة سالمة، وإن أصابتها جراح، وشاء لها القدر الحكيم أن تظل على قيد الحياة بعد ذلك سبعة عشر عامًا، ولم تمت إلا في حدود السنة الثلاثين من الهجرة.

فرضي الله تعالى عنها وعن سائر المؤمنات المجاهدات.

ولا ننسى لأسماء -ا- أنها روت فيما يُذكر 81 حديثًا، وروى عن أسماء ثلةٌ من أَجِلَّاء التابعين، كما روى أصحاب السنن الأربعة: أبو داوود والنسائي والترمذي وابن ماجه، والبخاري في الأدب المفرد.

وفي أسماء -رضي اللهُ عنها- نزلت آية حكم عِدَّة المطلقات، فقد أخرج أبو داوود والبيهقي في سننه، عن أسماء بنت يزيد قالت: طُلِّقتُ على عهد رسول الله -ﷺ-، ولم يكن للمطلَّقة عدة، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ [سورة البقرة، آية: 228]، فكانت أسماء بهذا أوَّل معتدَّة في الإسلام.

وكانت لها دراية بزينة النساء -رضي اللهُ عنها-، فلقد زيَّنَتْ أمَّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر -ا- يوم زفافها إلى رسول الله -ﷺ-.

وقد ذكرها بعض المؤرخين في وفيات سنة 69هـ في خلافة عبد الملك بن مروان. رضي الله عن الصحابية الجليلة أسماء بنت يزيد خطيبة النساء ومبعوثتهنَّ إلى المصطفى -ﷺ-.

أمُّ سلمة

«اللهمَّ عندكَ أحتسبُ مصيبتي هذه

اللهمَّ أخلِفني فيها خيرًا منها».

أمُّ سَلَمَةَ، وما أدْراكَ ما أمُّ سَلَمَةَ!

أبوها سيِّدٌ من ساداتِ مَخْزوم المَرْموقين، وجوادٌ من أجْوَادِ العَرَبِ المعدودين، حتَّى إنه كان يُقال له: «زادُ الراكِبِ»، لأنَّ الرُّكْبانَ كَانتْ لا تتزَوَّدُ إذا قَصَدَتْ منازِلَه أو سارَتْ في صُحْبَتِهِ.

وزوجُها فعبدُ اللهَّ بنُ عبدِ الأسَدِ، أحَدُ العَشَرةِ السابقين إلى الإسلامِ، إذْ لم يسلم قَبْلَه إلا أبو بكرٍ الصديقُ ونفرٌ قليل لا يَبْلُغُ أصَابعَ اليدين عددًا.

واسمُها هندُ، لكِنَّها كُنيتْ بأم سَلَمَةَ، ثم غَلَبَتْ عليها الكُنْيَةُ.

أسلمت أمُّ سَلَمَةَ مع زَوْجها فكانتْ هي الأخْرَى من السابقاتِ إلى الإسلامِ أيضًا، وما إنْ شاعَ نبأ إسلامِ أم سلمةَ وزوجها حتَّى هاجَتْ قريش ومَاجَتْ، وجَعلتْ تَصُبُّ عليهما من نكَالها ما يُزَلْزِلُ الصُّمَّ الصِّلابَ، فلم يَضعُفا ولم يَهِنا ولم يَتَردَّدا.

ولما اشتد عليهما الأذى وأذن الرسول -صلوات الله عليه- لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة كانا في طليعة المهاجرين.

مَضَتْ أمُّ سلمةَ وزوجُها إلى ديارِ الغُرْبَةِ وخلَّفَتْ وراءها في مكَّةَ بيتَها الباذِخَ، وعزَّها الشامِخَ، ونَسَبَها العريقَ، مُحْتَسِبَةً ذلك كلَّه عندَ اللهّ، مُسْتَقِلَّةً له في جَنْبِ مَرْضاتِه.

وعلى الرَّغْمِ ممَّا لَقيَتْه أمُّ سَلَمَةَ وصحبُها مِنْ حِمايَةِ النجاشِيِّ نَضرَ اللهُ في الجنةِ وَجْهَه، فقد كان الشَّوْقُ إلى مكَّةَ مهبطِ الوحْي، والحنينُ إلى رسولِ اللهّ مَصْدر الهُدَى يَفْري كَبِدَها وكَبدَ زوجها فَرْيًا.

ثم تَتَابَعتِ الأخبارُ على المهاجرين إلى أَرضِ الحَبَشَةِ بأنَّ المسلمين في مكَّةَ قد كَثُرَ عَدَدُهم، وأنَّ إسلامَ حَمْزَة بنِ عبدِ المطلب، وعمرَ بنِ الخطَّاب قد شَدَّ من أزْرهم، وكَفَّ شيْئًا من أذَى قريش عنهم، فَعَزَمَ فريق منهم عَلى العَودَةِ إلى مَكَّةَ، يَحْدوهم الشوقُ، ويدعوهم الحنينُ.

فكانت أمُّ سلمةَ وزوجُها في طليعةِ العائدين، لكِنْ سرْعانَ ما اكْتَشَفَ العائدون أنَّ ما نُمِيَ إليهم من أخبارٍ كان مُبالغًا فيه، وأنَّ الوَثْبَةَ التي وَثَبَها المسلمون بَعْدَ إسلامِ حمزةَ وعمرَ، قد قوبِلَتْ مِنْ قريش بِهَجْمَةٍ أكبرَ.

فَافْتَنَّ المُشْرِكونَ في تعْذيبِ المسلمين وتَرْويعهم، وأذاقوهُم مِنْ بَأسِهم ما لا عَهد لهم بِهِ مِنْ قَبلُ.

عند ذلك أذِنَ الرسولُ -صلواتُ اللهّ عليه- لأصحابِهِ بالهِجْرَةِ إلى المدينةِ، فَعَزَمَتْ أمُّ سلمةَ وزوجُها على أن يكونا أوَّلَ المهاجرين فِرارًا بدينهما وَتَخَلُّصًا من أذَى قريش، لكِنَّ هِجْرَةَ أمِّ سَلَمَةَ وزوجِها لم تكن سَهْلَةً مُيَسَّرَةً كما خُيِّل لهما، وإنَّما كانت شَاقَّةً مُرَّةً خَلَّفَتْ وراءَها مأساةً تهون دونَها كلُّ مَأساةٍ.

فَلْنَتْرِكِ الكلامَ لأمِّ سلمةَ لِتَرْوِيَ لنا قِصَّةَ مأساتها، فشعورُها بها أشدُّ وأعْمَقُ، وتَصْويرُها لها أدَقُّ وأبلَغُ.

قالت أمُّ سلمةَ:

لما عَزَمَ أبو سلَمَةَ على الخروج إلى المدينة أعَدَّ لي بعيرًا، ثمَّ حَمَلَني عليه، وجعلَ طِفْلَنا سَلَمَةَ في حِجْري، ومضَى يقودُ بِنا البعيرَ وهو لا يَلْوي على شيء، وقبلَ أن نَفْصِلَ عَنْ مَكَّةَ رآنا رِجالٌ مِنْ قَوْمي بني مخزوم

فَتَصَدَّوْا لنا، وقالوا لأبي سَلَمَةَ:

إن كنتَ قد غَلبْتَنا على نَفسِك، فما بالُ امْرَأتِكَ هذه؟! وهي بِنْتُنا، فعلامَ نَتْرُكُكَ تأخُذُها مِنَّا وتسيرُ بها في البلادِ؟!

ثم وَثَبوا عليه، وانْتَزَعوني منه انْتِزاعًا، وما إن رآهم قومُ زوجي بنو عَبْدِ الأسَدِ يأخذونَني أنا وطِفْلي، حَتَّى غَضِبوا أشَدَّ الغَضَبِ، وقالوا:

لا واللهِّ لا تترُكُ الوَلَدَ عِنْدَ صاحِبَتِكم بعد أن انْتزعتُمُوها من صاحِبِنا انْتِزاعًا، فهو ابْنُنا ونحن أولى به.

ثم طَفِقُوا يتجاذَبون طِفْلي سلمةَ بيْنَهم عَلَى مَشْهَدٍ منِّي حتَّى خَلَعوا يَدَهُ وأخَذوه، وفي لَحَظَاتٍ وَجَدْتُ نَفْسِي مُمَزَّقَةَ الشَّمْلِ وحيدةً فريدةً، فزوجي اتَّجه إلى المدينةِ فِرارًا بدينه ونَفْسِه، وولدي اخْتَطَفَه بنو عبدِ الأسَدِ من بينِ يَدَيَّ مُحَطَّمًا مَهيضًا، أما أنا فقد اسْتَوْلَى عليَّ قَوْمي بنو مخزوم، وجعلوني عِنْدَهم، ففُرِّقَ بَيْني وبينَ زَوْجي وَبَيْنَ ابني في ساعةٍ. ومُنذ ذلك اليوم جَعَلْتُ أخرُجُ كُلَّ غَداةٍ إلى الأبطَحِ، فأجْلِسُ في المكانِ الذي شَهِدَ مأساتي، وأستعيدُ صورةَ اللَّحظاتِ التي حِيلَ فيها بيني وبينَ ولدي وزَوْجِي، وأظَلُّ أبكي حتَّى يُخَيِّمَ عليَّ الليلَ. وبقيتُ على ذلك سنةً أو قريبًا مِنْ سنةٍ إلى أنْ مَرَّ بي رَجُلٌ من بني عَمِّي، فَرَقَّ لحالي ورَحِمَني وقال لِبني قومي: ألا تُطْلِقون هذه المسكينةَ؟! فَرَّقْتُم بينَها وبينَ زَوْجِها وبينَ ولدِها.

وما زالَ بهم يَسْتَلينُ قلوبَهم ويَسْتَدِرُّ عَطْفَهم حتَّى قالوا لي: الحقي بزوجِك إن شِئْتِ.

ولكِنْ كيفَ لي أن ألْحَقَ بِزَوجي في المدينةِ وأترُكَ ولدي وفِلْذَةَ كَبِدي في مكَّةَ عنْدَ بني عبدِ الأسدِ؟!

كيف يمكنُ أن تَهْدَأ لي لوعَة أو تَرْقأ لعيني عَبْرَةٌ وأنا في دارِ الهِجْرَةِ وولدي الصغيرُ في مكَّةَ لا أعرِف عنه شيئًا؟!

ورَأى بعضُ النـاسِ ما أعالج مِنْ أحْزاني وأشْجاني فرقَّت قلوبُهم لحالي، وكلَّموا بني عبدِ الأسَدِ في شَأني واسْتَعْطفوهم عليَّ فَرَدُّوا لي وَلَدي سَلَمَةَ.

لم أشأ أنْ أترَيَّثَ في مَكَّةَ حتَّى أجِدَ مَنْ أسافِرُ مَعَه، فقد كنت أخشى أنْ يَحْدُثَ ما ليس بالحِسْبَان فَيعوقَني عَنِ اللَّحاقِ بِزَوجي عائِقٌ، لذلك بادرتُ فأعْدَدْتُ بَعيري، ووضَعْتُ ولدي في حِجْري، وخَرَجْتُ مُتَوَجِّهَةً نحوَ المدينةِ أريدُ زَوْجي، وما مَعي أحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِّ. وما إن بَلَغْتُ «التنعيم» حتَّى لقيتُ عُثْمانَ بنَ طلحةَ فقال:

إلى أين يا بِنْتَ زادِ الراكِـبِ؟!

فقلت: أريدُ زَوْجي في المدينةِ.

قال: أوَما مَعَكِ أحدٌ؟!

قلت: لا واللهِّ إلا اللهِّ ثم بُنَيِّ هذا.

قال: واللهِّ لا أتْرُكُكِ أبدًا حتَّى تَبْلُغي المدينة.

ثم أَخَذَ بِخطام بعيري وانْطَلَقَ يَهْوي بي، فواللهّ ما صَحِبْتُ رجلًا من العَرَبِ قَطّ أكْرمَ مِنْه ولا أشْرَفَ؛ كان إذا بَلَغ منزلًا من المنازِلِ يُنيخُ بعيري، ثم يَسْتَأخرُ عنِّي، حتَّى إذا نَزَلْتُ عن ظهْرِه واسْتَوَيْتُ على الأرضِ دنا إليه وحَطَّ عَنْه رَحْلَه، واقْتَادَه إلى شَجَرَةٍ وقيَّده فيها، ثم يَتَنَحَّى عَنِّي إلى شَجَرَةٍ أخْرَى فيَضْطَجعُ في ظلِّها، فإذا حانَ الرَّواحُ قامَ إلى بعيري فأعَدَّه، وقدَّمه إليَّ، ثم يَسْتَأخِرُ عَنِّي ويقول: اركَبي، فإذا رَكِبْتُ، واسْتَوَيْتُ على البعيرِ، أتى فأخذَ بِخِطامِه وقادَه.

وما زال يصْنَعُ بي مثلَ ذلك كلَّ يوم حتَّى بَلَغْنا المدينةَ، فلمَّا نَظَرَ إلى قريةٍ بقُبَاء لبني عمرو بن عوف. قال: زوجُك في هذه القريةِ، فادْخُليها على بَرَكةِ اللهَّ. ثم انصَرَف راجعًا إلى مكَّةَ.

اجتَمَع الشَّمْلُ الشتيتُ بعدَ طولِ افْتِراقٍ، وقرَّتْ عَيْنُ أمِّ سلمةَ بِزَوْجِها، وسَعِدَ أبو سلمةَ بصاحِبَتِهِ وولَدِه، ثم طَفِقَتِ الأحداثُ تَمْضي سِراعًا كَلَمْحِ البَصرِ.

فهذه بَدْرٌ يَشْهَدُها أبو سلمةَ ويعودُ منها مَعَ المسلمين، وقد انْتَصروا نَصرًا مُؤزَرًا.

وهذه أُحد، يخوضُ غِمَارَها بَعْدَ بَدْرٍ، ويُبلي فيها أحسنَ البلاءِ وأكْرَمَه، لكنَّه يخرجُ منها وقد جُرِحَ جُرْحًا بليغًا، فما زال يعالِجُه حتَّى بدا له أنَّه قد انْدَمَلَ، لكِنَّ الجُرحَ كان قد رُمَّ عَلى فسادٍ فما لَبِثَ أن انْتَكَأ وألْزَمَ أبا سَلَمَةَ الفِراشَ.

وفيما كان أبو سلمة يُعالَج من جُرْحِه قال لزوجه: يا أمَّ سَلَمَةَ، سمعت رسولَ اللهّ -ﷺ- يقول: «لا يصيبُ أحدًا مصيبة، فَيَسْتَرْجعُ عِنْدَ ذلك ويقول اللَّهُمَّ عندَكَ احْتَسَبْتُ مصيبتي هذه، اللَّهُمَّ اخْلُفني خَيْرًا مِنها إلا أعطاهُ اللهّ -عزَّ وجلَّ-....».

ظَلَّ أبو سلمةَ على فِراشِ مَرَضِهِ أيامًا، وفي ذاتِ صباح جاءَه رسولُ اللهّ -ﷺ- ليَعودَه، فلم يَكَدْ ينتهي من زيارتِه ويجاوزُ بابَ داره، حتَّى فارقَ أبو سلمةَ الحياةَ، فأغْمَضَ النبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بِيَديه الشريفتين عَيْني صاحبه، ورَفَعَ طَرْفَه إلى السماءِ وقال:

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأبي سَلَمَةَ، وارْفَعْ دَرَجَتَه في المقرَّبين، واخلُفْه في عَقِبِهِ في الغابرين، واغْفِرْ لنا وله يا ربَّ العالمين، وافسَحْ له في قَبْرِه، ونوِّرْ له فيه.

أما أمُّ سلمةَ فَتَذكَّرَتْ ما رَواهُ لها أبو سَلَمَةَ عَنْ رسولِ اللهّ -ﷺ- فقالت:

اللَّهُمَّ عِنْدَكَ أحْتَسِبُ مصيبتي هذه... لكِنَّها لم تَطِبْ نفسُها أنْ تقولَ اللَّهُمَّ اخْلُفني فيها خيرًا منها، لأنَّها كانت تتساءل: ومن عَساهُ أن يكونَ خيرًا من أبي سَلَمَة؟! لكنَّها ما لَبِثَتْ أن أتمّتِ الدعاءَ.

حزن المسلمون لِمصابِ أمِّ سلمةَ كما لم يَحْزنوا لِمُصابِ أحَدٍ من قَبْلُ، وأطلقوا عليها اسم «أيِّم العرب»، إذْ لم يَكُنْ لها في المدينةِ أحدٌ من ذويها غيرَ صِبيَةٍ صغارٍ كزغبِ القطا.

شَعَرَ المهاجرون والأنْصَارُ معًا بِحَقِّ أمِّ سلمةَ عليهم، فما كادَتْ تَنْتَهي من حِدَادِها على أبي سلمةَ حتَّى تقدَّم منها أبو بكر الصديقُ يخطُبها لِنَفْسِهِ فأبَتْ أن تَسْتَجيبَ لِطَلَبِه، ثم تقدَّم منها عمرُ بنُ الخطَّاب فردَّته كما

ردَّت صاحِبَه، ثم تَقَدَّم منها رسولُ اللهّ -ﷺ- فقالت له:

يا رسولَ اللهّ، إنَّ فيَّ خِلالًا ثلاثًا: فأنا امرأةٌ شديدةُ الغَيْرَة، فأخافُ أن تَرَى مِنِّي شَيئًا يُغْضِبُكَ فَيُعَذِّبني اللهُ به. وأنا امرأة قَد دَخَلْتُ في السنِّ. وأنا امرَأة ذاتُ عِيال.

فقال عليه الصلاة والسَّلام:

أمَّا ما ذَكَرْتِ من غَيْرَتكِ فإني أدعو اللهَّ -عَزَّ وجَلَّ- أن يُذْهِبَها عنك. وأمَّا ما ذَكَرْتِ من السنِّ فقد أصابني مثلُ الذي أصابَك. وأمَّا ما ذَكَرْتِ من العيالِ، فإنَّما عيالُكِ عيالي.

ثم تزوَّج رسولُ اللهّ -ﷺ- من أمِّ سلمة فاستجاب اللهّ دعاءَها، وأخْلَفَها خيرًا من أبي سَلَمَةَ، ومنذ ذلك اليومِ لَمْ تَبْقَ هِنْدُ المَخْزُومِيَّةُ أمًّا لِسَلَمَةَ وحدَه، وإنما غَدَتْ أمًّا لجميع المؤمنين.

وقد كانت -ا- تختلف عن باقي نساء النبي، فقد انتُزعت من صدرها الغَيرة، إذ اعترفتْ للنبي بغَيرتها، وذلك عند خطبته لها كما قدَّمنا، فدعا لها النبي بذهاب الغَيرة من نفسها، وكانت -ا- من أجمل نسائه باعتراف أمِّ المؤمنين عائشة -ا- إذ تقول عائشة -ا-:

وقد كانت للسيدة أم سلمة -ا- مكانتها عند النبي، فعن زينب ابنة أمِّ سلمة -ا-: أن رسول الله كان عند أمِّ سلمة -ا- فجعل حَسَنًا في شقٍّ، وحُسَيْنًا في شقٍّ، وفاطمة في حجره، وقال: «رَحْمَةُ اللهَّ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ». وأنا وأمُّ سلمة -ا- جالستان، فبكت أمُّ سلمة -ا- فنظر إليها رسول الله، وقال: «مَا يُبْكِيكِ؟» قالت: «يا رسول الله، خصصتهم وتركتني وابنتي». قال: «أَنْتِ وَابْنَتُكِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ».

ولَمَّا كان النبي يدخل على نسائه كان يبتدئ بأمِّ سلمة -ا-، فعن عائشة -ا- قالت: كان رسول الله إذا صلَّى العصر دخل على نسائه واحدة واحدة، يبدأ بأمِّ سلمة -ا- لأنها أكبرهن، وكان يختم بي.

كانت أمُّ سلمة -ا- طيِّبة عفيفة، لها مكانتها عند رسول الله، فعيالها تربَّوْا في حجر النبي، وكان زواجها من النبي راجعًا لحكمة جليلة، وهي أنها غدتْ بعد زوجها أبي سلمة من غير عائل أو كفيل، وهي مع زوجها -□- قد مَنَحَا الدعوة كل ما يملكانه من مال ونفس وتضحية، فأبدلها الله بزواجها من النبي كلَّ خيرٍ فَقَدَتْه، وكان النبي يكرِّمها ويهديها، ولما تزوج النبي أمَّ سلمة -ا- قال لها: «إِنِّي قَدْ أَهْدَيْتُ إِلَى النَّجَاشِيِّ حُلَّةً وَأَوَاقِيَّ مِنْ مِسْكٍ، وَلا أَرَى النَّجَاشِيَّ إِلا قَدْ مَاتَ، وَلا أَرَى إِلا هَدِيَّتِي مَرْدُودَةً عَلَيَّ، فَإِنْ رُدَّتْ عَلَيَّ فَهِيَ لَكِ». قال: وكان كما قال رسول الله، ورُدَّتْ عليه هديته، فأعطى كل امرأة من نسائه أوقية مسك، وأعطى أمَّ سلمة بقية المسك والحُلَّة.

وكانت أمُّ سلمة -ا- سببًا مباشرًا لنزول بعض الآيات الكريمة من القرآن الكريم، فعن مجاهد قال: قالت أمُّ سلمة: يا رسول الله، تغزو الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث. فنزلت: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ﴾ [سورة

النساء، آية: 32]، ونزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾ [سورة الأحزاب، آية: 35].

قال مجاهد: وأُنْزِل فيها: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الأحزاب، آية: 35].

وكانت أمُّ سلمة أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرة، والظعينة هي المرأة التي تدخل الهودج الذي يكون فوق الناقة، تُسمَّى ظعينة لأنَّ الهودج من جلد يُسمَّى ظَعْنًا.

وعن عمرو بن دينار، عن سلمة -رجل من آل أمِّ سلمة- قال: قالت أمُّ سلمة: يا رسول الله، لا نَسْمَع اللهَ ذَكَر النساء في الهجرة بشيء؟ فأنزل الله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [سورة آل عمران، الآية: 195].

ولما فرغ رسول الله من قضية كتاب صلح الحديبية، قال لأصحابه: «قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا»، فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرَّات، فلمَّا لم يَقُمْ منهم أحد دخل على أمِّ سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أمُّ سلمة: يا نبي الله، أتحبُّ ذلك؟ اخرج ثم لا تكلِّم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك.

فخرج فلم يكلِّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه، فلمَّا رأَوْا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا.

قال ابن حجر: وإشارتها على النبي يوم الحديبية تدلُّ على وفور عقلها وصواب رأيها.

وقد روت -ا- (كما ذكر الذهبي في مسندها) ثلاثمائة وثمانين حديثًا، اتَّفق البخاري ومسلم على ثلاثة عشر، وانفرد البخاري بثلاثة، ومسلم بثلاثة عشر، وقد روت -ا- الأحاديث الخاصَّة بمعشر النساء بغرض التعليم والتوجيه.

وبعد وفاة النبي شاركت أمُّ المؤمنين أمُّ سلمة -ا- في أحداث عصرها، فقد دخلتْ ذاتَ يوم على أمير المؤمنين عثمان بن عفان قائلة له: «ما لي أرى رعيَّتك عنك نافرين، ومن جناحك ناقرين، لا تُعَفِّ طريقًا كان رسول الله لَجَبَهَا، ولا تقتدح بزند كان أكباه، وتوخَّ حيث توخَّى صاحباك -أبو بكر وعمر- فإنهما ثَكَمَا الأمر ثَكْمًا ولم يظلمَا، هذا حقُّ أمومتي أَقْضِيه إليك، وإن عليك حقَّ الطاعة». فقال عثمان: أمَّا بعد، فقد قلتِ فوعيتُ، وأوصيتِ فقَبِلْتُ.

موقف أم سلمة في معركة الجمل:

وفي حديث أمِّ سلمة أنها أتت عائشة لما أرادت الخروج إلى البصرة فنصحتها بجميل كلامٍ حتى أقنعتها عن العدول.

فقالت لها: «إنك سُدَّة بين رسول الله وأُمَّته، وحجابك مضروب على حرمته، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تَنْدَحِيه[25]، وسكن عُقَيْرَاكِ فلا تُصْحِرِيهَا[26]، الله من وراء هذه الأمَّة، لو أراد رسول الله أن يعهد إليك عهدًا عُلْتِ[27]، بل قد نهاك رسول الله عن الفُرْطة[28] في البلاد؛ إن عمود الإسلام لا يثاب[29] بالنساء إن مال، ولا يُرْأَبُ[30] بهن إنْ صَدَعَ، حُماديات[31] النساء غضُّ الأطراف وخفر الأعراض، وقِصَرُ الوَهَازَة[32]. ما كنتِ قائلة لو أن رسول الله عارضكِ ببعض الفلوات ناصَّة[33] قلوصًا من منهل إلى آخر؟ أنْ بعين الله مهواك، وعلى رسوله تردِّين قد وجهت سدافته[34] -ويُروى سجافته- وتركتِ عهيداه[35]. لو سرتُ مسيرَكِ هذا ثم قيل: ادخلي الفردوس. لاستحييتُ أن ألقى محمدًا هاتكة حجابًا قد ضربه عليَّ. اجعلي حصنكِ بيتكِ، ووقاعة الستر[36] قبرك، حتى تلقيه وأنت على تلك أطوع ما تكونين لله ما لزمتِه، وأَنْصَر ما تكونين للدِّين ما جلستِ عنه، لو ذكَّرْتُك قولًا تعرفينه نهشته نهش الرقشاء[37] المطرِقة».

فقالت عائشة: «ما أقبلني لوعظك! وليس الأمر كما تظنِّين، ولنعم المسير مسير فزعتْ فيه إليَّ فئتان متناجزتان -أو متناحرتان- إن أقعد ففي غير حرج، وإن أخرج فإلى ما لا بُدَّ من الازدياد منه».

ويُذكر أن بُسر بن أرطاة قدم المدينة في خلافة معاوية، ورفض أن يُبايع، فأتت أمُّ سلمة إليه، وقالت له: بايع، فقد أمرت عبد الله بن زمعة ابن أخي أن يُبايع.

وقد تُوُفِّيَتْ أُمُّ المؤمنين أمُّ سلمة -ا- في ولاية يزيد بن معاوية سنة إحدى وستين للهجرة كما ذكر ابن حبان، وقد تجاوزت الرابعة والثمانين من عمرها، وقيل: عُمِّرت تسعين سنة -ا-.

نَضرَ اللهُ وَجْهَ أم سلمة في الجنَّةِ ورَضِيَ عنها وأرضاها[38].

تندحيه: توسيعه بالحركة والخروج. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ندح 613/ 2.
عُقَيْراكِ فلا تُصْحِريها: أَي أَسكَنَكِ الله بيتك وعقارك وسترك فيه فلا تُبْرِزيه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عقر 591/ 4.
عُلْتِ: أَي عَدَلْتِ عن الطريق ومِلْتِ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عول 481/ 11.
الفرطة: من الفرط وهو السبق والتقدم. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة فرط 366/ 7.
لا يثاب: أي لا يصلح، من ثاب الرجل إذا صلح بدنه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ثوب 243/ 1.
يرأب: يصلح. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة رأب 398/ 1.
حُمادَيات: معناه غاية ما يحمد منهن هذا. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حمد 155/ 3.
قِصَرُ الوَهازة: أَي قِصَر الخُطَا. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وهز 430/ 5.
ناصَّة: أَي رافعة لها في السير، أي تسير بأقصى سيرها. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نصص 97/ 7.
السدافة: الحجاب والستر، والسجافة نحوها. انظر: ابن قتيبة: غريب الحديث 185/ 2، وابن منظور: لسان العرب مادة سدف 146/ 9.
عهيداه: العُهَّيْدَى.. فُعَّيْلى من العهد والأمان. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عهد 311/ 3.
وِقاعة الستر: موقعه على الأرض إذا أرسلته. انظر: ابن قتيبة: غريب الحديث 186/ 2، وابن منظور: لسان العرب، مادة وقع 402/ 8.
الرقشاء: الأفعى، سمِّيت بذلك للترقيش في ظهرها، وهو النقط. انظر: ابن قتيبة: غريب الحديث 186/ 2، وابن منظور: لسان العرب، مادة رقش 6/ 305.

للاستزادة من أخبار أم المؤمنين أم سلمة -I- انظر:

*ابن خزيمة.
*السهيلي: الروض الأنف.
*ابن هشام: السيرة النبوية.
*ابن الأثير: أسد الغابة.
*ابن كثير: السيرة النبوية.
*ابن زبالة: أزواج النبي.
*الطبراني: المعجم الكبير.
*محب الدين الطبري: ذخائر العقبى.
*الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد.
*مسند أحمد بن حنبل.
*ابن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن.
*البغوي: معالم التنزيل.
*القرطبي: الجامع لأحكام القرآن.
*ابن كثير: تفسير القرآن العظيم.
*ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة.
*محب الدين الطبري: السمط الثمين.
*أمينة الخراط: أم سلمة.
*من أعلام النساء.
*ابن قتيبة: غريب الحديث.
*الآبي: نثر الدر.
*عمر رضا كحالة: أعلام النساء.
*الإصابة في تمييز الصحابة.
*الاستيعاب.
*أسد الغابة.
*تقريب التهذيب.
*صفة الصفوة.
*شذرات الذهب.
*تاريخ الإسلام للذهبي.

*البداية والنهاية.
*الأعلام ومراجعه.

رَمْلَةُ بِنْتُ أَبي سُفْيَانَ

«أُمُّ حبيبة آثَرَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ عَلَى مَا سِوَاهُمَا، وَكَرِهَتْ أَنْ تَعُودَ لِلْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ المَرْءُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

[المؤرِّخُون]

ما كان يخطر ببال أبي سفيان بن حربٍ أنَّ في وسع أحد من قريش أن يخرج على سلطانه[39] أو يخالفه في أمرٍ ذي بالٍ[40].

فهو سيِّد مكَّة المطاع، وزعيمها الذي تدين له بالولاء[41].

لكنَّ ابنته رملة المكنَّاة بأمِّ حبيبة، قد بدَّدت[42] هذا الزَّعم، وذلك حين كفرت بآلهة أبيها، وآمنت هي وزوجها عبيد الله بن جحشٍ بالله وحده لا شريك له، وصدَّقت برسالة نبيِّه محمَّد بن عبد الله.

وقد حاول أبو سفيان بكلِّ ما أوتي من سطوةٍ وبأسٍ[43]، أن يردَّ ابنته وزوجها إلى دينه ودين آبائه، فلم يفلح، لأنَّ الإيمان الذي رسخ في قلب رملة كان أعمق من أن تقتلعه أعاصير[44] أبي سفيان، وأثبت من أن يزعزعه غضبه.

ركب أبا سفيان الهمُّ بسبب إسلام رملة، فما كان يعرف بأيِّ وجه يقابل قريشًا بعد أن عجز عن إخضاع ابنته لمشيئته، والحيلولة دونها ودون اتِّباع محمَّد.

ولمَّا وجدت قريشٌ أنَّ أبا سفيان ساخطٌ على رملة وزوجها اجترأت عليهما، وطفقت تضيِّق عليهما الخناق، وجعلت ترهقهما[45] أشدَّ الإرهاق، حتَّى باتا لا يطيقان الحياة في مكَّة.

ولمَّا أذن الرَّسول -صلوات الله وسلامه عليه- للمسلمين بالهجرة إلى «الحبشة»، كانت رملة بنت أبي سفيان وطفلتها الصَّغيرة حبيبة، وزوجها عبيد الله بن جحشٍ[46]، في طليعة المهاجرين إلى الله بدينهم، الفارِّين إلى حِمى «النَّجاشيِّ»[47] بإيمانهم.

لكنَّ أبا سفيان بن حربٍ ومن معه من زعماء قريشٍ، عزَّ[48] عليهم أن يفلت من أيديهم أولئك النَّفر من المسلمين، وأن يذوقوا طعم الرَّاحة في بلاد «الحبشة».

فأرسلوا رسلهم إلى النَّجاشيِّ يحرضونه[49] عليهم، ويطلبون منه أن يسلمهم إليهم، ويذكرون له أنَّهم يقولون في المسيح وأمِّه مريم قولًا يسوؤُه[50].

فبعث النَّجاشيُّ إلى زعماء المهاجرين، وسألهم عن حقيقة دينهم، وعمَّا يقولونه في عيسى بن مريم وأمِّه، وطلب إليهم أن يسمعوه شيئًا من القرآن الذي ينزل على قلب نبيِّهم.

فلمَّا أخبروه بحقيقة الإسلام، وتلوا عليه بعضًا من آيات القرآن، بكى حتَّى اخضلَّت[51] لحيته وقال لهم:

إنَّ هذا الذي أنزل على نبيِّكم محمَّدٍ، والذي جاء به عيسى بن مريم يخرجان من مشكاةٍ[52] واحدةٍ.

ثمَّ أعلن إيمانه بالله وحده لا شريك له، وتصديقه لنبوة محمَّدٍ -صلوات الله وسلامه عليه-، كما أعلن حمايته لمن هاجر إلى أرضه من المسلمين على الرَّغم من أنَّ بطارقته[53] أبَوْا أن يسلموا، وظلُّوا على نصرانيَّتهم.

حسبت[54] أمُّ حبيبة بعد ذلك أنَّ الأيَّام صفت لها بعد طول عبوس، وأنَّ رحلتها الشَّاقَّة في طريق الآلام قد أفضت[55] بها إلى واحة الأمان، إذ لم تكن تعلم ما خبَّأته لها المقادير، فلقد شاء الله تباركت حكمته، أن

يمتحن أمَّ حبيبة امتحانًا قاسيًا تطيش[56] فيه عقول الرِّجال ذوي الأحلام[57] وتتضعضع أمامه أفهام ذوي الأفهام، وأن يخرجها من ذلك الابتلاء الكبير ظافرةً تتربَّع[58] على قمَّة النَّجاح.

ففي ذات ليلةٍ أوت أمُّ حبيبة إلى مضجعها، فرأت فيما يراه النائم أن زوجها عبيد الله بن جحشٍ يتخبَّط في بحرٍ لُجِّيٍّ[59] غشيته ظلماتٌ[60] بعضها فوق بعضٍ، وهو بأسوأ حالٍ، فهبَّت من نومها مذعورةً[61] مضطربةً، ولم تشأ أن تذكر له أو لأحدٍ غيره شيئًا ممَّا رأت، لكن رؤياها ما لبثت أن تحقَّقت، إذ لم ينقضِ يوم تلك اللَّيلة المشؤومة[62] حتَّى كان عبيد الله بن جحشٍ، قد ارتدَّ عن دينه وتنصَّر، ثمَّ أكبَّ على حانات[63] الخمَّارين يُعاقر[64] أمَّ الخبائث[65] فلا يرتوي منها ولا يشبع.

وقد خيَّرها بين أمرين أحلاهما مُرٌّ:

فإما أن تُطلَّق...

وإما أن تتنصَّر...

وجدت أمُّ حبيبة نفسها فجأةً بين ثلاثٍ:

فإمَّا أن تستجيب لزوجها الذي جعل يُلحُّ في دعوتها إلى التَّنصُّر، وبذلك ترتدُّ عن دينها -والعياذ بالله- وتبوء[66] بخزي الدُّنيا وعذاب الآخرة.

وهو أمرٌ لا تفعله ولو مُشط لحمها عن عظمها بأمشاط من حديدٍ.

وإمَّا أن تعود إلى بيت أبيها في مكَّة، وهو ما زال قلعةً للشِّرك، فتعيش فيه مقهورةً مغلوبةً على دينها.

وإما أن تبقى في بلاد «الحبشة» وحيدةً، شريدةً، لا أهل لها ولا وطن ولا مُعين.

فآثرت[67] ما فيه رضا الله -عزَّ وجلَّ- على ما سواه، وأزمعت[68] على البقاء في «الحبشة» حتَّى يأتي الله بفرج من عنده.

لم يطل انتظار أمِّ حبيبة كثيرًا، فما إن انقضت عدَّتها[69] من زوجها الذي لم يعش بعد تنصُّره إلا قليلًا حتَّى أتاها الفرج... لقد جاءها السَّعد يرفرف بأجنحته الزُّمرُّديَّة[70] الخضر فوق بيتها المحزون على غير ميعادٍ...

ففي ذات ضحى مفضَّض السَّنا[71] طلق المحيَّا طرق عليها الباب، فلمَّا فتحته فوجئت «بأبرهة» وصيفة[72] النَّجاشيِّ ملك «الحبشة»، فحيَّتها بأدب وبشر، واستأذنت بالدُّخول عليها وقالت:

إنَّ الملك يحيِّيك ويقول لك: إنَّ محمَّدًا رسول الله قد خطبك لنفسه، وإنَّه بعث إليه كتابًا وكَّله فيه بأن يعقد له عليك، فوكِّلي عنك من تشائين.

استطارت[73] أمُّ حبيبة فرحًا، وهتفت:

بشَّرك الله بالخير...بشَّرك الله بالخير...

وطفقت تخلع ما عليها من الحليِّ، فنزعت سواريها، وأعطتهما لأبرهة، ثمَّ ألحقتهما بخُلخالها[74]، ثمَّ أتبعت ذلك بقُرطيها[75] وخواتيمها... ولو كانت تملك كنوز الدُّنيا كلَّها لأعطتها لها في تلك اللَّحظة.

ثمَّ قالت لها: لقد وكَّلتُ عنِّي خالد بن سعيد بن العاص[76]، فهو أقرب النَّاس إليَّ.

وفي قصر النَّجاشيِّ الرَّابض على رابيةٍ شجراء[77] مطلَّة على روضةٍ من رياض «الحبشة» النَّضرة،

وفي أحد أبهائه[78] الفسيحة المزدانة بالنُّقوش الزَّاهية، المضاءة بالسُّرج[79] النُّحاسيَّة الوضَّاءة، المفروشة بفاخر الرِّياش... اجتمع وجوه الصَّحابة المقيمين في «الحبشة»، وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالبٍ، وخالد بن سعيد بن العاص، وعبد الله بن حذافة السَّهميُّ[80]، وغيرهم ليشهدوا عقد أمِّ حبيبة بنت أبي سفيان على رسول الله -ﷺ-.

فلمَّا اجتمع الجمع، تصدَّر النَّجاشيُّ المجلس وخطبهم فقال:

أحمد الله القدُّوس المؤمن العزيز الجبَّار[81]، وأشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وأنَّه هو الذي بشر به عيسى بن مريم. أمَّا بعد... فإنَّ رسول الله -ﷺ- طلب منِّي أن أزوِّجه أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبته إلى ما طلب، وأمهرتها نيابةً عنه أربعمائة دينارٍ ذهبًا، على سنَّة الله ورسوله...

ثمَّ سكب الدَّنانير بين يدي خالد بن سعيدٍ بن العاص. وهنا قام خالدٌ فقال:

الحمد لله أحمده وأستعينه، واستغفره، وأتوب إليه، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، أرسله بدين الهدى والحقِّ ليظهره[82] على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون.

أمَّا بعد... فقد أجبت طلب رسول الله -ﷺ-، وزوَّجته موكِّلتي أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسوله بزوجته، وهنيئًا لأمِّ حبيبة بما كتب الله لها من الخير.

ثمَّ حمل المال وهمَّ أن يمضي به إليها، فقام أصحابه لقيامه وهمُّوا بالانصراف أيضًا.

فقال لهم النَّجاشيُّ: اجلسوا، فإنَّ سنَّة الأنبياء إذا تزوَّجوا أن يُطعموا طعامًا.

ودعا لهم بطعام فأكل القوم ثمَّ انفضُّوا[83].

قالت أمُّ حبيبة:

فلمَّا وصل المال إليَّ أرسلت إلى «أبرهة» التي بشَّرتني خمسين مثقالًا[84] من الذَّهب؛ وقلت:

إنِّي كنت أعطيتك ما أعطيت حين بشَّرتني، ولم يكن عندي يومئذٍ مالٌ. فما هو إلا قليلٌ حتَّى جاءت «أبرهة» إليَّ وردَّت الذَّهب، وأخرجت حُقًّا[85] فيه الحليُّ الذي كنت أعطيتها إيَّاه فردَّته إليَّ أيضًا وقالت:

إنَّ الملك قد عزم عليَّ إلا آخذ منك شيئًا، وقد أمر نساءه أن يبعثن لك بكلِّ ما عندهن من الطِّيب.

فلمَّا كان الغد جاءتني بورسٍ[86]، وعودٍ[87] وعنبرٍ، ثمَّ قالت لي: إنَّ لي عندك حاجةً.

فقلت: وما هي؟!

فقالت: لقد أسلمت، واتَّبعت دين محمَّدٍ، فاقرئي على النَّبيِّ منِّي السَّلام وأعلميه أنِّي آمنت بالله ورسوله ولا تنسي ذلك.

ثمَّ جهَّزتني[88].

ثمَّ إنِّي حُملت إلى رسول الله -ﷺ-، فلمَّا لقيته، أخبرته بما كان من أمر الخطبة، وما فعلته مع «أبرهة» وأقرأته منها السَّلام. فسرَّ بخبرها وقال: «وعليها السَّلام ورحمة الله وبركاته»(*).

(1) يخرج على سلطانه: يخالف أمره.

أمر ذو بال: أمر ذو أهمية وشأن.

الولاء: الطاعة والمتابعة.

بدَّدت هذا الزعم: أبطلت هذا الزعم ومزقته.

البأس: القوَّة.

أعاصير: جمع إعصار، وهو ريح شديدة ترتفع بتراب الأرض ومياه البحر.

ترهقهما: تتعبهما وتعنِّيهما.

عبيد الله بن جحش: هو أخو الصحابي الجليل عبيد الله بن جحش ويُقال اسمه عبد بن جحش.

النَّجاشي: ملك الحبشة، وقد سمع القرآن وآمن بالله ورسوله وآوى المسلمين.

عزَّ عليهم: صعب عليهم.

يحرضونه عليهم: يثيرونه عليهم.

يسوؤه: يؤذيه ويحزنه.

اخضلَّت لحيته: تبللت لحيته.

المشكاة: ما يوضع عليه المصباح، (أي من مصدر نور واحد).

البطارقة: جمع بطريق وهو القائد.

حسبت أمُّ حبيبة: ظنَّت.

أفضت بها: انتهت بها وأوصلتها.

تطيش: تتوه وتضل.

ذوو الأَحلام: أصحاب العقول.

تتربَّع: تجلس.

بحرٌ لُجِّي: بحر ذو لجج متلاطمة.

غشيته ظلمات: غطَّته ظلماتٌ وأطبقت عليه.

هبَّت مذعورة: نهضت خائفة.

الليلة المشؤومة: الليلة التعيسة.

حانات الخمارين: دكاكين الخمَّارين.

يعاقر الخمر: يلازمها ويدمن عليها.

أمَّ الخبائث: كناية عن الخمر، ودعيت بذلك لأنها أصل كل شر.

تبوء بخزي الدنيا: ترجع بعار الدنيا.

آثرت: فضَّلت واختارت.

أزمعت: عزمت وقررت.

العدَّة: المدَّة المشروعة التي تقضيها المرأة بعد وفاة زوجها أو طلاقها منه.

الزمرديَّة: نسبة إلى الزمرُّد، وهو حجر كريم أخضر اللون.

مفضَّض السَّنا: أي سناه فضي اللون والسَّنا: الضوء.

وصيفة النجاشي: خادمته الخاصَّة.

استطارت فرحًا: كادت تطير من شدَّة الفرح.

الخلخال: ضربٌ من الحلي تضعه المرأة في رجلها.
القرط: الحلق.
خالد بن سعيد بن العاص: انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة».
رابية شجراء: رابية ذات شجر.
الأبهاء: جمع بهو، وهو القاعة الواسعة.
السُّرج: جمع سراج، وهو المصباح الذي يضاء بالزَّيت ونحوه.
انظرهم في كتاب «صور من حياة الصحابة».
القدوس، المؤمن، العزيز، الجبار: من أسماء الله الحسنى.
ليظهره: ليجعله غالبًا قويًّا ظاهرًا.
انفضوا: تفرَّقوا.
المثقال: ما يوزن به الذهب ونحوه.
الحق: بضم الحاء وعاء الطيب.
الورس: نباتٌ أصفر يُتخذ منه الزعفران.
العود: ضربٌ من الطيب يتبخّر به.
جهّزتني: أعدّت لي جهازي.
(*) أخبار رملة بنت أبي سفيان انظر:

1- الإصابة.
2- الاستيعاب: «على هامش الإصابة».
3- أسد الغابة.
4- صفوة الصفوة.
5- المعارف لابن قتيبة.
6- سير أعلام النبلاء.
7- مرآة الجنان لليافعي.
8- السيرة النبوية لابن هشام.
9- تاريخ الطبري.
10- طبقات ابن سعد.
11- تهذيب التهذيب لابن حجر.
12- حياة الصحابة.
13- أعلام النساء لكحالة.

الخنساء

هي تماضر بنت عمرو بن الحارث السلمية ولقبها الخنساء، وسبب تلقيبها بالخنساء لقصر أنفها وارتفاع أرنبتيه[89].

عُرفت الخنساء -I- بحرية الرأي وقوة الشخصية، وذلك من خلال نشأتها في بيت عـز وجاه مع والدها وأخويها معاوية وصخر، والقصائد التي كانت تتفاخر بها بكرمها وجودهما، وأيضًا أثبتت قوة شخصيتها برفضها الزواج بدريد بن الصمة أحد فرسان بني جشم، لأنها آثرت الزواج بأحد بني قومها، فتزوجت بابن عمها رواحة بن عبد العزيز السلمي، إلا أنها لم تدم طويلًا معه، لأنه كان يقامر ولا يكترث بماله، لكنها أنجبت منه ولدًا، ثم تزوجت بعده بابن عمها مرداس بن أبي عامر السلمي، وأنجبت منه أربعة أولاد.

وأكثر ما اشتُهرت به الخنساء في الجاهلية هو شعرها، وبخاصة رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية، واللذَين ما فتئت تبكيهما حتى خلافة عمر. ومما يذكر في ذلك ما كان بين الخنساء وهند بنت عتبة قبل إسلامه، نذكره لنعرف إلى أي درجة اشتهرت الخنساء بين العرب في الجاهلية بسبب رثائها أخويها.

وعندما كانت وقعة بدر قُتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، فكانت هند بنت عتبة ترثيهم، وتقول بأنها أعظم العرب مصيبة. وأمرت بأن تقارن مصيبتها بمصيبة الخنساء في سوق عكاظ، وعندما أتى ذلك اليوم، سألتها الخنساء: من أنت يا أختاه؟ فأجابتها: أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة، وقد بلغني أنك تعاظمين العرب بمصيبتك، فبم تعاظمينهم أنت؟ فقالت: بأبي عمرو الشريد، وأخي صخر ومعاوية. فبم أنت تعاظمينهم؟ قالت الخنساء: أوهم سواء عندك؟ ثم أنشدت هند بنت عتبة تقول:

أبكي عميد الأبطحين كليهما ومانعها من كل باغ يريدهـا

أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي وشيبة والحامي الذمار وليدها

أولئك آل المجد من آل غالب وفي العز منها حين ينمي عديدها

فقالت الخنساء:

أبكـي أبي عمـرًا بعيـن غـزيـرة قليـل إذا نـام الخلـي هجودهـا

وصنوي لا أنسى معاوية الذي له من سراة الحرتيـن وفـودهـا

وصخرًا ومن ذا مثل صخر إذا غدا بساحته الأبطال قــزم يقودها

فذلك يا هند الرزية فاعلمي ونيران حرب حين شب وقـودهـا

قال ابن عبد البر في الاستيعاب: «قَدِمَت الخنساءُ على رسول الله -ﷺ- مع قومها من بني سليم فأسلمت معهم».

وتُعد الخنساء من المخضرمين، لأنها عاشت في عصرين: عصر الجاهلية وعصر الإسلام، وبعد ظهور الإسلام أسلمت وحسن إسلامها[90].

ويغلب عند علماء الشعر على أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها. كان بشار يقول: إنه لم تكن امرأة تقول الشعر إلا يظهر فيه ضعف. فقيل له: وهل الخنساء كذلك؟ فقال: تلك التي غلبت الرجال.

أنشدت الخنساء قصيدتها التي مطلعها:

قذى بعينيك أم بالعين عوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

وسُئل جرير عن أشعر الناس فـأجابهم: أنا، لولا الخنساء.

قيل: فيم فضل شعرها عنك؟ قال: بقولها:

إن الزمان ومـا يفنى له عجـب أبقى لنا ذنبًا واستؤصل الــرأس

وفي يوم من الأيام طُلب من الخنساء أن تصف أخويها معاوية وصخر، فقالت: إن صخرًا كان الزمان الأغبر، وذعاف الخميس الأحمر. وكان معاوية القائل الفاعل.

فقيل لها: أي منهما كان أسنى وأفخر؟

فأجابتهم: بأن صخرًا حر الشتاء، ومعاوية برد الهواء.

قيل: أيهما أوجع وأفجع؟

فقالت: أما صخر فجمر الكبد، وأما معاوية فسقام الجسد.

ولها موقف مع الرسول -ﷺ- فقد كان يستنشدها فيعجبه شعرها، وكانت تنشده وهو يقول: «هيه يا خناس». أو يومي بيده[91].

تلك المرأة العربية التي سُميت بالخنساء، مرت بحالتين متشابهتين لكن تصرفها تجاه كل حالة كان مختلفًا مع سابقتها أشد الاختلاف، متنافرًا أكبر التنافر، أولاهما في الجاهلية، وثانيهما في الإسلام. وإن الذي لا يعرف السبب يستغرب من تصرف هذه المرأة.

أما الحالة الأولى فقد كانت في الجاهلية يوم سمعت نبأ مقتل أخيها صخر، فوقع الخبر على قلبها كالصاعقة في الهشيم، فلبت النار به، وتوقدت جمرات قلبها حزنًا عليه، ونطق لسانها بمرثيات له بلغت عشرات القصائد، وكان مما قالته:

قذى بعينك أم بالعين عوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

كأن عيني لذكراه إذا خطرت	فيض يسيل على الخدين مدرار
وإن صخـــرًا لـــوالينـا وسيـدنـا	وإن صخـــرًا إذا نشتـــوا لنـــار
وإن صخـــرًا لمقـــدام إذا ركبوا	وإن صخـــرًا إذا جاعـــوا لعقـار
وإن صخـــرًا لتأتـــم الهداة به	كـــأنـــه عـلـم فـي رأسـه نـــار
حمَّال ألويـة هبَّـــاط أوديـــة	شهَّـــاد أنـديـة للجـيش جـــرَّار

أما الحالة الثانية التي مرت بها هذه المرأة فما ذكره الزبير بن بكار عن محمد بن الحسن المخزومي وهو المعروف بابن زبالة أحد المتروكين عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه عن أبي وجزة عن أبيه قال: حضرت الخنساء بنت عمرو السلمية حرب القادسية سنة 16هـ - 638م ومعها بنوها أربعة رجال، فذكر موعظتها لهم وتحريضهم على القتال وعدم الفرار، فقد حرَّضت أبناءها الأربع على الجهاد ورافقتهم مع الجيش زمن عمر بن الخطاب، وقد أوصتهم: «يا بني، إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم. وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]. فإذا أصبحتم غدًا -إن شاء الله- سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، وإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها وجللت نارًا على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة».

فلما بلغ إليها خبر وفاة استشهادهم جميعًا، لم تجزع، ولم تبكِ، ولم تحزن، قالت قولتها المشهورة: «الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته». وكان عمر بن الخطاب يعطي الخنساء أرزاق أولادها الأربع حتى قبض. أخرجه أبو عمر.

لها موقف يدل على وفائها ونبلها مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -- فلم تزل الخنساء تبكي على أخويها صخرًا ومعاوية حتى أدركت الإسلام، فأقبل بها بنو عمها إلى عمر بن الخطاب وهي عجوز كبيرة فقالوا: يا أمير المؤمنين، هذه الخنساء قد قرحت مآقيها من البكاء في الجاهلية والإسلام فلو نهيتها لرجونا أن تنتهي.

فقال لها عمر -بعد أن شاهدها تطوف حول البيت وهي محلوقة الرأس، تلطم خديها، وقد علقت نعل صخر في خمارها-: اتقي الله وأيقني بالموت!

فقالت: أنا أبكي أبي وخيرَيْ مضر؛ صخرًا ومعاوية، وإني لموقنة بالموت.

فقال عمر: أتبكين عليهم وقد صاروا جمرة في النار؟

فقالت: ذاك أشد لبكائي عليهم.

فكأنَّ عمر رق لها فقال: خلوا عجوزكم لا أبا لكم، فكل امرئ يبكي شجوه ونام الخلي عن بكاء الشجي.

ثم طلب أن تنشده ما قالته في صخر قديمًا.

فقالت: أَمَا إني لا أنشدك ما قلت قبل اليوم، ولكني أنشدك ما قلتُه الساعة.

فقالت:

سقى جَدَثًا أعراقُ غَمْرَةَ دونه وبيشة ديماتُ الربيع ووابلُهُ
وكنتُ أُعِير الدمعَ قبلك من بكَى فأنت على من مات قبلك شاغلُه
وأرعيهمُ سمعي إذا ذكروا الأسى وفي الصدرِ مني زفرةٌ لا تزايلُه

فقال عمر: دعوها، فإنها لا تزال حزينة أبدًا.

وتمضي الخنساء مع الإسلام فتنسى كثيرًا من عادات الجاهلية، ولكنها لا تنسى السادات من مضر، ولا يفارقها الوجد عليهم، والبكاء من أجلهم.

ومن لا يعرف السبب الذي حوَّل هذه المرأة من حال إلى حال يظل مستغربًا، ويبقى في حيرة من أمره، فهذه المرأة تسلل إلى قلبها أمر غـيَّر حياته، وقلب أفكاره، ورأب صدع قلبه، إنها باختصار دخلت في الإسلام، نعم دخلت في الإسلام الذي أعطى مفاهيم جديدة لكل شيء، مفاهيم جديدة عن الموت والحياة والصبر والخلود، فانتقلت من حال اليأس والقنوط إلى حال التفاؤل والأمل، وانتقلت من حال القلق والاضطراب إلى حال الطمأنينة والاستقرار، وانتقلت من حالة الشرود والضياع إلى حالة الوضوح في الأهداف، وتوجيه الجهود إلى مرضاة رب العالمين.

نعم هذا هو الإسلام الذي ينقل الإنسان من حال إلى حال، ويرقى به إلى مصاف الكمال، فيتخلى عن كل الرذائل، ويتحلى بكل الشمائل، ليقف ثابتًا في وجه الزمن، ويتخطى آلام المحن، وليحقق الخلافة الحقيقية التي أرادها الله للإنسان خليفة على وجه الأرض[92].

وتوفيت الخنساءُ بالبادية في أول خلافة عثمان -رضي الله عنه- سنة 24هـ، فرضي اللهُ عنها وأرضاها.

الوافي في الوفيات.

جواهر الأدب.

الاستيعاب.

موقع لها أون لاين.

السيدة الطاهرة رقية

بنت رسول اللّه -ﷺ-

رقية بنت رسول الله -ﷺ-، أمها خديجة بنت خويلد، فهي بنت سيد البشر -ﷺ- محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمية.

وُلدت رقية بنت رسول الله -ﷺ- الهاشمية، وأمها خديجة أم المؤمنين، ونشأت قبل بعثة الرسول -ﷺ-، وقد استمدت رقية -ا- كثيرًا من شمائل أمها، وتمثلَتْها قولًا وفعلًا في حياتها من أول يوم تنفس فيه صبح الإسلام، إلى أن كانت رحلتها الأخيرة إلى الله -عز وجل- . وسيرة حياة السيدة رقية -ا- تستوفي كل الكنوز الغنية بمكارم الفضائل ونفحات الإيمان، وهذه الكنوز التي تغني المرء عن الدراهم والدنانير، بل أموال الدنيا كلها، فسيرة السيدة رقية تجعل النفوس تحلق في أجواء طيبة، لا يستطيع أصحاب الأموال والدنيا الوصول إليها، ولو صرفوا الدنيا وما فيها، لأن من يتذوق طعم حياة الأبرار، يترفع عن الحياة التي لا تعرف إلا الدرهم والدينار.

لم يمضِ على زواج زينب الكبرى غير وقت قصير، إلا وطرق باب خديجة ومحمد وفد من آل عبد المطلب، جاء يخطب رقية وأختها التي تصغرها قليلًا لشابين من أبناء الأعمام، وهُما «عتبة وعتيبة» ولدا أبي لهب عم الرسول -ﷺ-.

وأحست رقية وأختها انقباضًا لدى أمهما خديجة، فالأم تعرف من تكون أم الخاطبين زوجة أبي لهب، ولعل كل بيوت مكة تعرف من هي أم جميل بنت حرب ذات القلب القاسي والطبع الشرس واللسان الحاد، ولقد أشفقت الأم على ابنتيها من معاشرة أم جميل، لكنها خشيت اللسان السليط الذي سينطلق متحدثًا بما شاء من حقد وافتراء إن لم تتم الموافقة على الخِطبة والزواج، ولم تشأ خديجة أيضًا أن تعكر على زوجها طمأنينته وهدوءه بمخاوفها من زوجة أبي لهب وتمت الموافقة، وبارك محمد ابنتيه، وأعقب ذلك فرحة العرس والزفاف وانتقلت العروسان في حراسة الله إلى بيت آخر وجو جديد.

ودخلت رقية مع أختها أم كلثوم بيت العم، ولكن لم يكن مكوثهما هناك طويلًا، فما كاد رسولنا محمد -ﷺ- يتلقى رسالة ربه، ويدعو إلى الدين الجديد، فأسلمت حين أسلمت أمها خديجة بنت خويلد، وبايعت رسول الله -ﷺ- هي وأخواتها حين بايعه النساء.

وراح سيدنا رسول الله يدعو إلى الإسلام سرًّا، فاستجاب لله -عز وجل- من شاء من الرجال ومن النساء والولدان. ويبدو أن عمات رسول الله قد نصحنه -ﷺ- ألا يدعو عمه أبا لهب لكيلا تثور هائجته، فلا يدري بما يتكلم، وحتى لا تنفث زوجته أم جميل سمومها في بنات النبي، فقد كان أبو لهب وأولاده ألعوبة تتحكم فيهم أم جميل التي تنهش الغيرة قلبها إذا ما أصاب غيرها خير. وقد قام رسول الله بدعوة الناس إلى الإسلام، وعندما علم أبو لهب بذلك أخذ يضحك ويسخر من رسول الله ثم رجع إلى البيت، وراح يروي لامرأته الحاقدة ما كان من أمر محمد ابن أخيه الذي أخبرهم بأنه رسول الله إليهم، ليخرجهم من الظلمات إلى النور وصراط العزيز الحميد، وشاركت أم جميل زوجها في سخريته وهزئه.

لكن القرآن الكريم تنزَّل على الحبيب المصطفى -ﷺ- نديًّا رطبًا، ونزل القرآن عليه يشير إلى المصير المشؤوم لأم جميل بنت حرب، وزوجها المشؤوم أبي لهب، قال الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾. [سورة المسد، آية: 1 - 5].

ولعب شيطان الحقد في نفسها، وأحست برغبة عنيفة في داخلها للانتقام من أقرب الناس إليها من رقية وأم كلثوم -□-، وإن كان هذا الانتقام سيؤذي ولديها، ولكنها ما دامت ستفرغ كل حقد ممكن لديها، وتقيء كل عصارة كيدها في جوانب نفسها، فلا مانع من ذلك حتى تحطم بزعمها الدعوة المحمدية، وسلكت ضد سيدنا رسول الله أبشع السبل في اضطهاده.

ذاعت سورة «المسد» في الدنيا بأسرها، ومشى بعض الناس بها إلى أبي لهب وأم جميل، ارْبَدَّ وجه كل واحد منهما، واستبدَّ بهما الغضب والحنق، ثم أرسلا لولديهما عتبة وعتيبة وقالا لهما إنّ محمدًا قد سبَّهما. ثم التفتَ أبو لهب إلى ولده عتبة وقال في غضب:

رأسي من رأسك حرام إن لم تطلق ابنة محمد.

فطلقها قبل أن يدخل بها.

أما عتيبة، فقد استسلم لثورة الغضب وقال في ثورة واضطراب:

لآتين محمدًا فلأوذينّه في ربه.

وانطلق عتيبة بن أبي لهب إلى رسول الله -ﷺ- فشتمه ورد عليه ابنته وطلقها.

فقال رسول الله: «اللهم سلِّط عليه كلبًا من كلابك». واستُجِيبَت دعوة الرسول -ﷺ-.

إذ بلغ الألم برسول الله -ﷺ- من على عتيبة بن أبي لهب، لأنه لم يفارق أم كلثوم -I- في هدوء، إنما كان موقفهُ شرسًا من رسول الله -ﷺ-، وهو ما رواه البيهقي وغيره.

قال البيهقي:

«وطلقَ عتيبة أم كلثوم، وجاء النبيَّ -ﷺ- حين فارق أم كلثوم»، فقال: «كفرتُ بدينك، وفارقتُ ابنتك، لا تحبُّني ولا أحبك».

ثمَّ تسلَّط على رسول الله -ﷺ- فشقَّ قميصه.

فقال رسول الله -ﷺ-: «أما إنِّي أسألُ اللهَ أنْ يُسلِّط عليه كلبَه».

فخرجَ نفرٌ من قريش حتى نزلوا في مكان من الشام ليلًا يُقالُ لهُ الزرقاء، فأطافَ بهم الأسد تلك الليلة، فجعلَ عُتيبة يقول:

«يا ويل أمي، هو واللهِ آكلي كما دعا محمد، قتلني ابنُ أبي كبشة وهو بمكة وأنا بالشام».

فصاح بهِ الأسدُ من بين القوم، وأحذ برأسهِ فضغَمَهُ ضغمةً فذبحه!

وطفقت أم جميل تنفث سمومها في كل مكان تكون فيه، ولم تكتفِي بكشف خبيئة نفسها الخبيثة، ولكنها راحت تزين للناس مقاومة الدعوة، واجتثاث أصولها، لأنها تفرق بين المرء وأخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، وفصيلته التي تؤويه. ولما انتهت من طوافها، وهي تزرع بذور الفتنة، وتبغي نشر الحقد والفساد، راحت تجمع الحطب لتضعه في طريق رسول الله -ﷺ- لتؤذيه، وفي هذا دليل على بخلها الذي جُبلت عليه.

ولم يكفها أن ردت رقية وأم كلثوم مطلقَتين، بل خرجت ومعها زوجها أبو لهب -الذي شذ عن الأعمام وآل هاشم، فقد جمع بين الكفر وعداوة ابن أخيه-، وسارت وإياه يشتمان محمدًا، ويؤذيانه ويؤلبان الناس ضده، وقد صبر الرسول -ﷺ- على أذاهم، وكذلك فعلت رقية وأختها، صبرتا مع أبيهما، وهما اللتان تعودتا أن تتجملا بالصبر قبل طلاقهما، لما كانت تقوم به أم جميل من رصد حركاتهما ومحاسبتهما على النظرة والهمسة واللفتة.

شاءت قدرة الله لرقية أن تُرزَق بعد صبرها زوجًا صالحًا كريمًا من النفر الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ذلك هو عثمان بن عفان صاحب النسب العريق، والطلعة البهية، والمال الموفور، والخلق الكريم.

ذلك هو «عثمان بن عفان» أحد فتيان قريش، وأغناهم مالًا، وجمالًا، وعزًّا، ومنعةً، تصافح سمعه همسات دافئة تدعو إلى عبادة العليم الخبير الله رب العالمين، والذي أعزه الله في الإسلام سبقًا وبذلًا وتضحيةً، وأكرمه بما يقدم عليه من شرف المصاهرة، وما كان الرسول الكريم -ﷺ- ليبخل على صحابي مثل عثمان بمصاهرته، وسرعان ما استشار ابنته، ففهم منها الموافقة عن حب وكرامة، وتم لعثمان نقل عروسِه إلى بيته، وهو يعلم أن قريشًا لن تشاركه فرحته، وستغضب عليه أشد الغضب، ولكن الإيمان يفديه عثمان بالقلب ويسأل ربه القبول.

ودخلت رقية بيت الزوج العزيز، وهي تدرك أنها ستشاركه دعوته وصبره، وأن سبلًا صعبة ستسلكها معه دون شك إلى أن يتم النصر لأبيها وأتباعه. وسعدت رقية -ا- بهذا الزواج من التقي النقي عثمان بن عفان، وولدت رقية غلامًا من عثمان فسماه عبد الله، واكتنى به[93].

وكانت تُكنى بأم عبد الله، وتُكنى بذات الهجرتين؛ أي هجرة الحبشة وهجرة المدينة.

دارت الأيام لكي تختبر صدق المؤمنين، وتشهد أن أتباع محمد قد تحملوا الكثير من أذى المشركين، كان المؤمنون وفي مقدمتهم رقية وعثمان -□- في كرب عظيم، فكفار قريش ينزِلون بهم صنوف العذاب، وألوان البلاء والنقمة، ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [سورة البروج، آية: 8].

ولم يكن رسول الله -ﷺ- بقادرٍ على إنقاذ المسلمين مما يلاقونه من البلاء المبين، وجاءه عثمان وابنته رقية يشكوان مما يقاسيان من فجرة الكافرين، ويقرران أنهما قد ضاقا باضطهاد قريش وأذاهم.

وجاء نفر آخرون ممن آمن من المسلمين، وشكوا إلى الرسول الكريم -ﷺ- ما يجدون من أذى قريش، ومن أذى أبي جهل زعيم الفجار. ثم أشار النبي عليهم بأن يخرجوا إلى الحبشة، إذ يحكمها ملك رفيق لا يُظلَم عنده أحد، ومن ثم يجعل الله للمسلمين فرجًا مما هم عليه الآن.

ولما أراد عثمان بن عفان الخروج إلى أرض الحبشة، قال له رسول الله -ﷺ-: «اخرج برقية معك». قال: «أخال واحد منكما يصبر على صاحبه».

وأخذت رقية وعثمان -□- يعدان ما يلزم للهجرة، وترك الوطن الأم مكة أم القرى. ويكون عثمان ورقية أول من هاجر على قرب عهدهما بالزواج، ونظرت رقية مع زوجها نظرة وداع على البلد الحبيب، وتمالكت دمعها قليلًا، ثم صعب ذلك عليها، فبكت وهي تعانق أباها وأمها وأخواتها الثلاثة زينب وأم كلثوم والصغيرة فاطمة، ثم سارت راحلتها مع تسعة من المهاجرين، مفارِقة الأهل والأحباب، وعثمان هو أول من هاجر بأهله.

ثم أرسل النبي -ﷺ- أسماء بنت أبي بكر -□- فقال: «ائتني بخبرهما». فرجعت أسماء إلى النبي -ﷺ- وعنده أبو بكر فقالت: يا رسول الله، أخرج حمارًا موكفًا فحملها عليه، وأخذ بها نحو البحر. فقال رسول الله -ﷺ-: «يا أبا بكر، إنهما لأول من هاجر بعد لوط وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام»[94].

وانطلق المهاجرون نحو الحبشة تتقدمهم رقية وعثمان، حتى دخلوا على النجاشي، فأكرم وفادتهم، وأحسن مثواهم، فكانوا في خير جوار، لا يؤذيهم أحد ويقيمون شعائر دينهم في أمن وأمان وسلام. وكانت رقية -ا- في شوق واشتياق إلى أبيها رسول الله وأمها خديجة، ولكن المسافة بعيدة، وإن كانت الأرواح لتلتقي في الأحلام.

ثم توافدت بعد ذلك الوفود إلى الحبشة، وفيها بعض العزاء والمواساة لرقية ومن معها من المهاجرين، لكنها ظلت أبدًا تنزع إلى مكة وتحن إلى من تركتهم بها، وظل سمعها مرهفًا يتلهف إلى أنباء أبيها الرسول -ﷺ-، وصحبة الكرام. ولقد أثَّرَتْ شدة الشوق والحنين على صحتها، فأسقطت جنينها الأول، وخيف عليها من فرط الضعف والإعياء، ولعل مما خفف عنها الأزمة الحرجة رعاية زوجها وحبه، وعطف المهاجرين وعنايتهم بها.

وجاء من أقصى مكة رجل من أصحاب رسول الله، فاجتمع به المسلمون في الحبشة، وأصاخوا إليه أسماعهم حيث راح يقص عليهم خبرًا أثلج صدورهم، خبر إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، وكيف أن الله -عز وجل- قد أعز بهما الإسلام. واستبشر المهاجرون بإسلام حمزة وعمر، فخرجوا راجعين، وقلوبهم تخفق بالأمل والرجاء، وخصوصًا سيدة نساء المهاجرين رقية بنت رسول الله التي تعلق فؤادها وأفئدة المؤمنين بنبي الله محمد -ﷺ-.

وصلت إلى الحبشة شائعات كاذبة، تتحدث عن إيمان قريش بمحمد، فلم يَقوَ بعض المهاجرين على مغالبة الحنين المستثار، وسرعان ما ساروا في ركب متجهين نحو مكة، ويتقدمهم عثمان ورقية، ولكن يا للخيبة

المريرة، فما إن بلغوا مشارف مكة، حتى أحاطت بهم صيحات الوعيد والهلاك. وطرقت رقية باب أبيها تحت جنح الظلام، فسمعت أقدام فاطمة وأم كلثوم، وما إن فُتح الباب حتى تعانق الأحبة، وانهمرت دموع اللقاء. وأقبل محمد -ﷺ- نحو ابنته يحنو عليها ويسعفها لتثوب إلى السكينة والصبر، فالأم خديجة قد قاست مع رسول الله وآل هاشم كثيرًا من الاضطهاد مع أنها لم تهاجر، وقد ألقاها المرض طريحة الفراش، لتودِّع الدنيا وابنتها لا تزال غائبة في الحبشة.

وعندما علمت قريش برجوع المؤمنين المهاجرين، عملت على إيذائهم أكثر من قبل، واشتدت عداوتهم على جميع المؤمنين، مما جعل أصحابه -ﷺ- في قلق، ولكنهم اعتصموا بكتاب الله، مما زاد ضراوة المشركين وزاد من عذابهم. وراح الفجرة الكفرة يشددون على المسلمين في العذاب وفي السخرية حتى ضاقت عليهم مكة، وقاسى عثمان بن عفان من ظلم أقربائه وذويه الكثير.

ولكن عثمان صبر وصبرت معه رقية مما جعل قريش تضاعف وجبات العذاب للمؤمنين، فذهبوا إلى رسول الله -ﷺ- يستأذنونه في الهجرة إلى الحبشة فأذن لهم، فقال عثمان بن عفان -رضي الله عنه-: يا رسول الله، فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشي، ولست معنا. فقال رسول الله -ﷺ-: «أنتم مهاجرون إلى الله وإليَّ، لكم هاتان الهجرتان جميعًا». فقال عثمان: فحسبنا يا رسول الله.

وهاجرت رقية ثانية مع زوجها إلى الحبشة مع المؤمنين الذين بلغوا ثلاثة وثمانين رجلًا. وبهذا تنفرد رقية ابنة رسول الله بأنها الوحيدة من بناته الطاهرات التي تُكتب لها الهجرة إلى بلاد الحبشة، ومن ثم عُدَّت من أصحاب الهجرتين. قال الإمام الذهبي- رحمه الله- عن هجرة رقية وعثمان -□-: «هاجرت معه إلى الحبشة الهجرتين جميعًا». وفيهما قال رسول الله -ﷺ-: «إنهما أول من هاجرا إلى الله بعد لوط».

ولم يطل المقام برقية في مكة، ففي العام الثالث عشر للبعثة، كان أكثر المؤمنين من أهل البيت الحرام قد وصلوا إلى المدينة المنورة، ينتظرون نبيهم محمدًا ليأتي إليهم وإلى إخوتهم الأنصار مهاجرًا مجاهدًا، وهناك في المدينة جلست رقية مع زوجها عثمان، ووضعت مولودها الجميل عبد الله، وراحت تملأ عينيها من النظر إليه، لكي تنسى مرارة فقدها لجنينها، ولوعة مصابها في أمها، وما قاسته في هجرتها وهي بطلة الهجرتين من شجن الغربة. ويبدأ صراع جديد بين الحق والباطل، وترى رقية بوادر النصر لأبيها، فالله -عز وجل- قد أذن له وللمؤمنين أن يقاتلوا المشركين، ليدعموا بنيان المجتمع الإسلامي الجديد الذي بنوه بأيديهم في يثرب.

وينمو عبد الله ابن المجاهدَين العظيمين نموًّا طيبًا، ولكن شدة العناية قد توقع فيما يحذره الإنسان أحيانًا، فما بال عبد الله يميل نحو الهبوط، وتذبل ريحانته بعد أن كان وردة يفوح عطرها، ويزكو أريجها يا الله! وأخذ الزوجان يرقبان بأعين دامعة وقلب حزين سكرات الموت يغالبها الصغير بصعوبة تقطع الفؤاد. ومات ابن رقية، بعد أن بلغ ست سنين، ومات بعد أن نقر الديك وجهه «عينه»، فتورم وطمر وجهه ومرض ثم مات، وبكته أمه وأبوه، وافتقد جده بموته ذلك الحمل الوديع الذي كان يحمله بين يديه كلما زار بيت ابنته، ولم تلد رقية بعد ذلك.

ولم يكن لرقية سوى الصبر وحسن التجمل به، ولكن كثرة ما أصابها في حياتها من مصائب عند أم جميل، وفي الحبشة، كان له الأثر في أن تمتد إليها يد المرض والضعف، ولقد آن لجسمها أن يستريح على فراش أعده لها زوجها عثمان، وجلس بقربها الزوج الكريم يمرضها ويرعاها، ويرى في وجهها علامات مرض شديد وألم قاسٍ تعانيه، وراح عثمان يرنو بعينين حزينتين إلى وجه رقية الذابل، فيغص حلقه آلامًا، وترتسم الدموع في عينيه، وكثيرًا ما أشاح بوجهه لكي يمسك دمعة تريد أن تنهمر، ولقد كانت رقية تحس هذا الشيء، فتتجلد وتبذل ما أمكنها، لكي تبتسم له ابتسامة تصطنعها حتى تعود إليه إشراقة وجهه النضير، وتنهال على رأسه الذكريات البعيدة، ورأى رقية وهي في الحبشة تحدِّث المهاجرات حديثًا يدخل البهجة إلى النفوس، ويبعث الآمال الكريمة في الصدور، وتقص عليهن ما كانت تراه من مكارم أبيها رسول الله -ﷺ-، وحركت هذه الذكريات أشجان عثمان، وزادت في مخاوفه، وكان أخشى ما يخشاه أن تموت رقية، فينقطع نسبه لرسول الله -ﷺ-.

ورنا عثمان ثانية إلى وجه زوجته الذابل، ففرت سكينته، ولفه حزن شديد ممزوج بخوف واضطراب، حيث كانت الأنفاس المضطربة التي تلتقطها رقية جهدها، تدل على فناء صاحبتها. كانت رقية تغالب المرض، ولكنها لم تستطع أن تقاومه طويلًا، فأخذت تجود بأنفاسها، وهي تتلهف لرؤية أبيها الذي خرج إلى بدر، وتتلهف لرؤية أختها زينب في مكة، وجعل عثمان يرنو إليها من خلال دموعه، والحزن يعتصر قلبه، مما كان أوجع لفؤاده أن يخطر على ذهنه، أن صلته الوثيقة برسول الله -ﷺ- توشك أن تنقطع. وكان مرض رقية -ا- الحصبة، ثم بعد صراعها مع هذا المرض، لحقت رقية بالرفيق الأعلى، وكانت أول من لحق بأم المؤمنين خديجة من بناتها، لكن رقية توفيت بالمدينة، وخديجة توفيت بمكة قبل بضع سنين، ولم ترَها رقية، وتوفيت رقية، ولم ترَ أباها رسول الله، إذ كان ببدر مع أصحابه الكرام، يعلون كلمة الله، فلم يشهد دفنها -ﷺ-.

وحُمل جثمان رقية -ا- على الأعناق، وقد سار زوجها خلفه، وهو والله حزين، حتى إذا بلغت الجنازة البقيع، دُفنت رقية هنالك، وقد انهمرت دموع المشيعين، وسوى التراب على قبر رقية بنت رسول الله -ﷺ-، ثم عاد المجاهدون من بدر يبشرون المؤمنين بهزيمة المشركين، وأسر أبطالهم. وفي المدنية المنورة خرج رسول الله إلى البقيع، ووقف على قبر ابنته يدعو لها بالغفران. لقد ماتت رقية ذات الهجرتين قبل أن تسعد روحها الطاهرة بالبشرى العظيمة بنصر الله، ولكنها سعدت بلقاء الله في داره.

توفيت السيدة رقية -ا- يوم قدوم زيد بن حارثة العقيلي من قبل يوم بدر[95].

رحم الله رقية بطلة الهجرتين، وصلاة وسلامًا على والدها في العالمين، ورحم معها أمها وأخواتها وابنها وشهداء بدر الأبطال، وسلامًا عليها وعلى المجاهدين الذين بذلوا ما تسع لهم أنفسهم به من نصرة لدين الله ودفاع عن كلمة الحق والتوحيد إلى يوم الدين، والسعي إلى إعلاء كلمة الله.

انظر الحاكم: المستدرك على الصحيحين (6850)، 51/ 4، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة 648/ 7، نساء أهل البيت ص496-498.

انظر: بنات النبي ص48، 49.

الحاكم: المستدرك على الصحيحين.

ابن حبان: الثقات 144/ 2.

الغُمَيصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ

المُكنَّاةُ بِأُمّ سُلَيمٍ

«مَا سَمِعْنَا بِامْرَأَةٍ قَطُّ كَانَتْ أَكْرَمَ مَهْرًا مِنْ أُمّ سُلَيْمٍ؛ إِذْ كَانَ مَهْرُهَا الإِسْلاَمُ».

[أَهْلُ المَدِينَةِ]

كانت الغميصاء بنت ملحان -حين أهلَّ الإسلام بنوره على الأرض- نصفًا تخطو نحو الأربعين من عمرها، وكان زوجها مالك بن النَّضر يسبغ عليها من وارف[96] حبِّه، وظليل وداده ما ملأ حياتها نضرةً[97] ورغدًا[98] وكان أهل «يثرب» يغبطون الزَّوج السَّعيد على ما تتحلَّى به عقيلته من رجاحة العقل، وبعد النَّظر، وحسن التَّبعُّل[99].

وفي ذات يوم من أيام الله الخالدة نفذ إلى «يثرب» -مع الداعية المكِّيِّ مصعب بن عميرٍ[100]- أوَّل شعاعٍ من أشعَّة الهداية المحمَّديَّة، فتفتَّح له قلب الغميصاء كما تتفتَّح أزاهير الرِّياض لتباشير الصَّباح، فلمَّا لبثت أن أعلنت إسلامها يوم كان المسلمون- في المدينة- يُعدُّون على الأصابع.

ثمَّ دعت الزَّوجة الوفيَّة زوجها الأثير لينهل معها من هذا المنهل الإلهيِّ العذب الطَّهور، ويحظى بما حظيت به من سعادة الإيمان.

لكنَّ مالك بن النَّضر لم يشرح للدِّين الجديد صدرًا، ولا طاب به نفسًا، بل إنَّه دعا زوجه بالمقابل إلى الرُّجوع عن الإسلام والعودة إلى دين الآباء والأجداد وتشبَّث كلٌّ من الزَّوجين بموقفه، فالغميصاء تكره أن تعود إلى الكفر بعد الإيمان كما يكره المرء أن يُقذف في النَّار، ومالكٌ يتعصَّب لدين الآباء والأجداد في عنادٍ.

وكانت الغميصاء تملك من قوَّة الحجَّة ما تفحم[101] به زوجها، وكان في دعوتها من نور الحقِّ ما يفضح باطله الواهي[102] المتهافت[103]...

وكان لمالكٍ صنمٌ من خشبٍ يعبده من دون الله، فكانت تحاجُّه في أمره قائلةً:

أتعبد جذع شجرةٍ نبت في الأرض التي تطؤها بقدميك، وترمي فيها فضلاتك؟! أتدعو من دون الله خشبةً نجرها لك حبشيٌّ من صنَّاع المدينة؟!

ولمَّا ضاق الزَّوج ذرعًا بحجج زوجته الدَّامغة[104] غادر المدينة ومضى هائمًا على وجهه متَّجهًا نحو بلاد الشام، ثمَّ إنه لم يلبث هناك قليلًا حتَّى مات على شركه.

وما إن شاع في المدينة خبر ترمُّل الغميصاء حتَّى تشوق كثيرٌ من الرِّجال إلى الاقتران بها، لولا أنَّهم كانوا يخشون أن تردَّهم خائبين لما بينها وبينهم من الاختلاف في الدِّين.

غير أنَّ زيد بن سهلٍ[105] المكنى بأبي طلحة أطمعه في رضاها به ما كان بينهما من روابط القربى، فكلاهما من بني «النَّجَّار».

مضى أبو طلحة إلى بيت الغميصاء وخاطبها بكنيتها قائلًا:

يا أمَّ سليم، لقد جئتك خاطبًا، فأرجو ألا أُردَّ خائبًا.

فقالت: والله ما مثلك يردُّ يا أبا طلحة، ولكنَّك رجلٌ كافرٌ وأنا امرأةٌ مسلمةٌ، ولا يحل لي أن أتزوَّجك، فإن تسلم فذاك مهري ولا أريد منك صداقًا غير الإسلام.

فقال: دعيني حتَّى أنظر في أمري. ومضى...

ولمّا كان الغد عاد إليها وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمَّدًا عبده ورسوله.

فقالت: أما وإنَّك قد أسلمت، فقد رضيتك زوجًا.

فجعل النَّاس يقولون: ما سمعنا بامرأة قط كانت أكرم مهرًا من أمِّ سليم، إذ كان مهرها الإسلام.

نَعِمَ أبو طلحة بما كانت تتحلَّى به أمُّ سليمٍ من كريم الشَّمائل[106]، ونبيل الخصائل، ثمَّ زاده سعادةً بها أنَّها وضعت له غلامًا غدا قرَّة عينه، وفرحة قلبه.

لكنَّه بينما كان يتأهَّب لسفرٍ من أسفاره اشتكى الطِّفل الصَّغير من علَّةٍ ألَّت به، فجزع عليه جزعًا شديدًا كاد يصرفه عن السَّفر.

وفي غيبته القصيرة ذوى[107] الغصن النَّضير[108]، ثمَّ وُري الثَّرى[109]، فقالت أمُّ سليمٍ لأهلها:

لا تخبروا أبا طلحة بموت ابنه حتَّى أخبره أنا.

عاد أبو طلحة من رحلته فتلقَّته أمُّ سليمٍ هاشَّةً باشَّةً فرحةً مستبشرةً، فبادرها بالسُّؤال عن الصَّبيِّ فقالت:

دعه فإنَّه الآن أسكن ما عرفته.

ثمَّ قربت إليه العشاء، وجعلت تؤنسه وتدخل على قلبه السرور، فلمَّا وجدت أنَّه شبع واستراح قالت له:

يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قومًا استرجعوا عاريةً[110] أعاروها لآخرين، أفمن حقَّهم أن يخطوا عليهم أن يمنعوها منهم؟

قال: لا.

قالت: إن الله استردَّ منك ما وهب، فاحتسب ولدك عنده.

فتلقى أبو طلحة قضاء الله بالرِّضا والتَّسليم، ولما أصبح غدا على رسول الله -ﷺ- وحدَّثه بما كان من أم سليم، فدعا له ولها بأن يعوِّضهما الله خيرًا ممَّا فقداه، وأن يبارك لهما في العوض، فاستجاب الله -جل وعز- لدعاء نبيه -ﷺ-، وحملت أمُّ سليم، ولما أتمت حملها كانت عائدةً إلى المدينة من سفر هي وزوجها مع رسول الله -ﷺ-، فلمَّا دنوا من «يثرب» جاءها المخاض فتوقَّف أبو طلحة معها ومضى النَّبيُّ الكريم -ﷺ- يريد دخول المدينة قبل أن يجنَّ عليه الليل، فرفع أبو طلحة طرفه إلى السَّماء وقال:

إنَّك لتعلم يا رب أنَّه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج، وأن أدخل معه إذا دخل، وقد منعني من ذلك ما ترى.

فقالت له أمُّ سليمٍ: يا أبا طلحة، إني والله لا أجد من ألم المخاض بهذا المولود ما كنت أجده من قبل، فانطلق بنا ولا تتأخَّر عن صحبة رسول الله-ﷺ-.

فانطلقا حتَّى إذا بلغا المدينة وضعت حملها، فإذا هو غلامٌ، فقالت لمن حولها:

لا يرضعه أحد قبل أن تذهبوا به إلى رسول الله -ﷺ-.

فلمَّا أصبح حمله إليه أخوه أنس بن مالكٍ[111]، فلمَّا رآه النَّبي -ﷺ- مقبلًا قال:

«لعل أمَّ سليمٍ ولدت».

فقال: نعم يا رسول الله. ووضع الغلام في حجره، فدعا بعجوةٍ من عجو المدينة ولاكها في فمه الشَّريف حتَّى ذابت، ووضعها في فم الصَّبيِّ، فجعل يتلمظها[112]، ثمَّ مسح وجهه بيده الكريمة، وسمَّاه عبد الله، فجاء من صلبة عشرةٌ من علماء الإسلام الأخيار.

ولقد كان من شأن أمِّ سليمٍ أنها أحبَّت رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه- حبًّا خالط منها اللَّحم والعظم، وسكن في حبَّة القلب. وقد بلغ من حبِّها له ما حدَّث عنه ابنها أنسٌ، قال:

كان رسول الله -ﷺ- نائمًا في بيتنا ذات نهارٍ، وكان الحرُّ شديدًا، فأخذ العرق يتصبَّب من جبينه، فجاءت أمِّي بقارورةٍ، وجعلت تُسلت فيها العرق، فاستيقظ النَّبيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- وقال:

ما هذا الذي تصنعين يا أمَّ سليمٍ؟!

قالت: هذا عرقك أجمعه وأجعله في طيبنا، فيغدو أطيب الطِّيب.

ومن شواهد حبِّها لرسول الله -صلوات الله وسلامه عليه- وهي كثيرةٌ وفيرةٌ، أن ابنها أنس كانت له ذؤابةٌ[113] تنوس[114] على جبينه، فرغب إليها زوجها أن تقصَّها له بعد أن طالت فأبت ذلك، لأنَّ النَّبيَّ -صلوات الله وسلامه عليه- كان كلَّما أقبل عليه أنس مسح رأسه بيده ومسَّ ذؤابته المدلَّاة على جبينه.

ولم تقتصر خصائل أمِّ سليم على أنَّها كانت مؤمنةً راسخة الإيمان، عاقلةً وافرة العقل، زوجًا وأمًّا من الطراز الأول، وإنما كانت فوق ذلك كلِّه مجاهدة في سبيل الله، فلكم ملأت رئتيها من غبار المعارك العبق[115] بطيوب الجنَّة!

وخضَّبت[116] أناملها من جراح المجاهدين، وهي تمسحها بيديها وتحكم عليها الضِّماد[117].

ولكم سكبت الماء في حلوق العطاش وهم يجودون بنفوسهم في سبيل الله، وحملت لهم الزَّاد، وأصلحت السِّهام.

لقد شهدت «أُحُدًا» هي وزوجها أبو طلحة مع رسول الله -ﷺ-، ودأبت هي وعائشة -رضوان الله عليهما- على نقل قرب الماء على ظهريهما وإفراغها في أفواه القوم.

كما شهدت «حنينًا» أيضًا، وقد اتخذت لنفسها يومذاك خنجرًا وتمنطقت به، فلمَّا رآه زوجها أبو طلحة قال: يا رسول الله، هذه أمُّ سليم معها خنجرٌ.

فقال لها النَّبيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلام-: «ما هذا يا أمَّ سليمٍ؟!».

قالت: خنجرٌ اتَّخذته حتَّى إذا دنا منِّي أحدٌ من المشركين بقرت[118] به بطنه.

فجعل رسول الله -ﷺ- يضحك سرورًا بما قالت.

أفتظنُّ أن على ظهر الأرض امرأةً أسعد سعادةً وأزهى خاتمةً من أمِّ سليم بعد أن قال فيها رسول الله -ﷺ-: «دخلت الجنَّة فسمعت فيها خشفةً[119]... فقلت: من هذا؟! قالوا: الغميصاء بنت ملحان أمُّ أنس بن مالكٍ»(*).

وارف حبِّه: ظلال حبِّه الممتدة.
النضرة: الرونق واللطف والبهجة والبهاء.
رغدًا: الرغد العيش الواسع الطيب الذي لا تعب فيه.
التَّبعُّل: أداء حق الزوج بالطاعة والإحسان.
مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشي: أحد السابقين إلى الإسلام، وأول المبشرين به خارج مكَّة، استشهد يوم «أحد».
ما تُفحم: ما تسكت به زوجها من الدليل والبرهان.
الواهي: الضعيف الذي لا قوام له.
المتهافت: المتساقط المتداعي.
الدَّامغة: التي لا يجد الخصم عنها حولًا.
زيد بن سهل: انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة».
كريم الشَّمائل: ذو خصال كريمة حميدة.
ذوى: ذبل وضعف.
النَّضير: الحسن الجميل.
ووري الثرى: دفن في التراب.
عاريَّة: الشيء المستعار الذي يجب رده.
أنس بن مالك: انظره في كتاب «صور من حياة الصحابة».
يتلمَّظها: أي يتتبع بلسانه بقيتها ويمسح به شفتيه.
الذؤابة: خصلة من الشعر في مقدمة الرأس.
تنوس: تتمايل.
العبق: المضمخ بالطيب.
خضَّبت: لونت، والخضاب: هو الحناء.
الضِّماد: ما يربط به الجرح.
بقرتُ بطنه: شقت بطنه.
خشفة: حركة مشيٍ.

(*) للاستزادة من أخبار الغميصاء بنت ملحان انظر:

1- الطبقات الكبرى 467/ 1، 407، و116/ 2، و515/ 3، و19/ 7، و174/ 8، 121، 104، 8.
2- تاريخ الطبري: 21/ 2، 76«وانظر الفهارس في العاشر».
3- حياة الصحابة: «انظر الفهارس في الرابع».
4- السيرة لابن هشام: 354/ 2-88/ 4.
5- سير أعلام النبلاء: 304/ 2-311.
6- المعارف لابن قتيبة: 371،308.
7- أعلام النساء لكحالة: 256/ 2.
8- تهذيب التهذيب: 471/ 12.
9- الإصابة: 461/ 4 «الترجمة» 1321.
10- الاستيعاب «على هامش الإصابة»: 455/ 4.
11- حلية الأولياء: 57/ 2.
12- صفة الصفوة: 65/ 2.
13- أسد الغابة: 212/ 7.
14- المحبر: 428.

عائشة بنت أبي بكر

الصديقة بنت الصديق

حبيبة رسول اللّه -ﷺ-

عائِشة بنت أبي بكر التيميَّة القُرَشِيّة، ابنة الخليفة الراشد الأول -رضي الله عنه-، وزوجُ النبيِّ -ﷺ-، وإحدى أمهات المؤمنين، تزوجها النبيُّ بِكرًا ولم يتزوج امرأة بكرًا غيرها. الفقيهة العالمية المجاهدة، التي كانت من بين النساء اللواتي خرجن يوم أحد لسقاية الجرحى.

إنها زوجة رسول الله -ﷺ-، وأحب أزواجه إليه، المبرَّأة من فوق سبع سماوات -ا وعن أبيها-.

وأمها: هي أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية، تكنى عائشة بأم عبد الله.

قيل: كناها بذلك رسول الله -ﷺ- بابن أختها عبد الله بن الزبير.

وقيل: إنها أسقطت من رسول الله سقطًا فسماه عبد الله، ولم ينزل عليه الوحي في لحاف امرأة غيرها، ولم يكن في أزواجه أحب إليه منها.

تزوجها بمكة بعد وفاة خديجة، وقيل بل في المدينة بعد غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وفي حديثٍ ترويهِ أمنا عائشة -ا-، أنَّ جبريل جاء للنبيِّ -عليه الصلاة والسلام- في المنام، في سرقة من حريرة مرتين أو ثلاثًا فيقول: هذه زوجتك.

قال: فأكشف عنك فإذا هي أنت، فأقول: «إن يكن هذا من عند الله يمضه» فخطبها من أبيها.

فقال أبو بكر: يا رسول الله، أو تحل لك؟

قال: «نعم!»

قال: أولستُ أخاك؟

قال: «بلى في الإسلام، وهي لي حلال»، فتزوجها رسول الله -ﷺ- فحظيت عنده.

ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي عثمان النهدي عن عمرو بن العاص قال:

قلت: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة». قلت: ومن الرجال؟ قال: «أبوها».

وفي صحيح البخاري أيضًا عن أبي موسى قال: قال رسول الله -ﷺ-: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

وقد استدل كثير من العلماء ممن ذهب إلى تفضيل عائشة على خديجة بهذا الحديث، قال: فإنه دخل فيه سائر النساء الثلاثة المذكورات وغيرهن.

وثبت في صحيح البخاري أن الناس كانوا يتحرَّون بهداياهم يوم عائشة (أي ينتظرون حتى يجيء يوم عائشة الذي يكون فيه النبي ببيتها) فاجتمع أزواجه إلى أم سلمة وقلن لها: قولي له يأمر الناس أن يهدوا له حيث كان.

فقالت أم سلمة: فلما دخل عليَّ قلت له ذلك فأعرض عني.

ثم قلن لها ذلك فقالت له فأعرض عنها، ثم لما دار إليها قالت له، فقال: «يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليَّ الوحي في بيت وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها».

وذُكر: إنهن بعثن فاطمة ابنته إليه فقالت: إن نساءك ينشدونك العدل في ابنة أبي بكر بن أبي قحافة.

فقال: «يا بنية ألا تحبين من أحب؟».

قالت: بلى.

قال: «فأحبي هذه».

رَوى الإمام أحمدُ في مسنده، وأبو داود في سُننه عنِ النُّعْمان بن بشير، قال: جاء أبو بكر يستأذن على النبيِّ -ﷺ- فسَمِع ابنتهُ عائشةَ -ا- وهي رافعة صوتَها على رسولِ الله -ﷺ- فأذِن له، فدخل فقال: يا ابنةَ أمِّ رُومان (وتناولها)، أتَرْفعين صوتَكِ على رسول الله -ﷺ-؟!

قال: فحالَ النبيُّ -ﷺ- بينه وبينها، قال: فلمَّا خرَج أبو بكر جعَل النبيُّ -ﷺ- يقول لها يتَرَضَّاها: «ألاَ تَرين أني قد حُلْتُ بيْن الرجل وبيْنَك؟».

ثم جاء أبو بكر فاستأذن عليه، فوجَدَه يضاحكها، قال: فأذن له فدخَل، فقال له أبو بكر: يا رسولَ الله، أشْرِكاني في سِلْمِكما كما أشْركتُماني في حَرْبِكما.

فانظرْ إلى النبيِّ -ﷺ- القُدوة، كيف أنَّه يُحادِث عائشة -ا- وهي ترْفَع صوتها عليه، ومع ذلك لم يُغضِبْه ذلك ولم يتبرَّم، فالعاقل مَن يستطيع أن يُوازنَ بيْن أموره، ومَن كَرِه خُلقًا رَضِي آخَر، وخطأ اليوم يُصلَح في غدٍ، ثُمَّ انظر إلى الصِّدِّيق لم يعجبْه أن ترفع ابنتُه صوتها على رسولِ الله -ﷺ- فهَمَّ أن يضربَها، فحال النبيُّ -ﷺ- بينه وبين عائشة -ا-، ثمَّ جعَل يترضَّاها فرَضِيت، وما يضرُّ رسولَ الله -ﷺ- أن ترضَى أو تغضَب عائشة، بل إنَّ رِضاهُ -عليه الصلاة والسلام- هو المعتبَر، ولكن هذا درسٌ للأمةِ قاطبةً، حتى نتفهَّمَ طبيعةَ المرأة.

رَوَى البخاريُّ عن أنس قال: كان النبيُّ -ﷺ- عندَ بعض نسائه، فأرسَلتْ إحْدى أمَّهات المؤمنين بصَحْفَة فيها طعامٌ، فضربت التي النبيُّ -ﷺ- في بيتها.. يدَ الخادم، فسقطَتِ الصَّحْفة، فانفلقتْ، فجمَع النبيُّ -ﷺ- فَلقَ الصَّحْفة، ثم جعَل يجمع فيها الطعامَ الذي كان في الصحفة، ويقول: «غارَتْ أمُّكم»، ثم حبَس الخادم حتى أُتِي بصَحْفة مِن عند التي هو في بيْتها، فدَفَع الصَّحْفة الصحيحةَ إلى التي كُسِرتْ صَحفتُها، وأمْسَك المكسورَة في بيْت التي كَسَرَت.

وروَى الإمامُ مسلم في صحيحه عن محمَّد بن قيس بن مَخْرَمة بن المطلب: أنَّه قال يومًا: ألا أُحدِّثكم عنِّي وعن أمِّي؟ قال: فظننا أنه يُريد أُمَّه التي ولدتْه. قال: قالت عائشةُ -ا-: ألا أُحدِّثكم عنِّي وعن رسولِ الله -ﷺ-؟ قلنا: بلى. قال: قالت: لَمَّا كانتْ ليلتي التي كان النبي -ﷺ- فيها عِندي انقَلَب فوَضَع رِداءَه، وخَلَع نعلَيْه فوضعَهما عندَ رِجليه، وبسط طَرْفَ إزاره على فِراشه فاضطجع، فلم يلبثْ إلا رَيْثما ظنَّ أنْ قد رقدتُ،

فأخذ رِداءَه رُويدًا، وانتعل رُويدًا، وفتَح الباب فخَرَج، ثم أجافه رُويدًا، فجعلتُ دِرعي في رأسي واختمرتُ وتقنعتُ إزاري، ثم انطلقتُ على إثره، حتَّى جاء البقيع، فقام فأطال القيام، ثم رَفَع يديه ثلاثَ مَرَّات، ثم انحرَف فانحرفتُ، فأسرع فأسرعتُ، فهرول فهرولتُ، فأحْضَر فأحضرتُ، فسبقتُه فدخلتُ، فلَيْس إلا أنِ اضطجعتُ فدَخَل، فقال: «ما لَكِ يا عائشُ حَشيًا رابيةً؟!»، قالت: قلت: لا شيء، قال: «لتُخبريني أو ليُخبرنِّي اللطيفُ الخبير»، قالت: قلت: يا رسولَ الله، بأبي أنتَ وأمِّي، فأخبرتُه، قال: «فأنتِ السَّوادُ الذي رأيتُ أمامِي؟» قلت: نعم، فلهَدَني في صدري لهَدةً أوجعتْني، ثم قال: «أظننتِ أن يَحيفَ اللهُ عليك ورسولُه؟!» قالت: مَهْمَا يكتمِ الناسُ يَعْلمه اللهُ، نَعَمْ، قال: «فإنَّ جبريل أتاني حين رأيتِ فناداني، فأخفاه منكِ فأجبتُه فأخفيتُه منك، ولَم يكُنْ يدخُل عليك وقد وضعتِ ثيابَك، وظننتُ أنْ قد رقدتِ، فكرهتُ أن أوقظَك، وخشيتُ أن تستوحشي»، فقال: «إنَّ ربَّك يأمرُك أن تأتي أهلَ البقيع فتستغفرَ لهم»، قالت: قلت: كيف أقولُ لهم يا رسولَ الله؟ قال: «قُولي: السلام على أهل الدِّيار مِنَ المؤمنين والمسلمين، ويَرحَم الله المستقدمين منَّا والمستأخِرين، وإنَّا إنْ شاء الله بِكم للاحِقون».

ومن حبّهِ لها نذكر ما حدث بينها وبين زوجات النبي:

رَوى الإمامُ مسلم في صحيحه: أنَّ عائشة زَوْج النبي -ﷺ- قالت: أرْسَل أزواج النبي -ﷺ-، فاطمةَ بنتَ رسولِ الله، إلى رسولِ الله -ﷺ- فاستأذنتْ عليه وهو مُضطجِع معي في مِرطي، فأذِنَ لها، فقالت: يا رسولَ الله، إنَّ أزواجَك أرسلْنني إليك يسألْنَك العدلَ في ابنةِ أبي قُحافةَ، وأنا ساكِتة، قالت: فقال لها رسولُ الله -ﷺ-: «أي بُنيَّة، ألستِ تُحبِّين ما أُحِب»، فقالت: بلَى. قال: «فَأحبِّي هذه»، قالت: فقامتْ فاطمةُ حين سمعتْ ذلك مِن رسولِ الله -ﷺ- فرجعتْ إلى أزواج النبي، فأخبرتْهنَّ بالذي قالت وبالذي قال لها رسولُ الله -ﷺ-، فقُلْنَ لها: ما نراكِ أغنيتِ عنَّا مِن شيء، فارجعي إلى رسولِ الله -ﷺ- فقولي له: إنَّ أزواجك ينشدنك العدلَ في ابنة أبي قحافة، فقالت فاطمة: والله لا أُكلِّمه فيها أبدًا.

قالت عائشة: فأرْسَل أزواج النبي -ﷺ-، زينبَ بنت جحش زَوْج النبي، وهي التي كانتْ تُساميني منهنَّ في المنزلة عندَ رسولِ الله -ﷺ- ولم أَرَ امرأةً قطُّ خيرًا في الدِّين مِن زينب، وأتْقَى لله، وأصْدق حديثًا، وأوْصَل للرَّحِم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالًا لنفسها في العمل الذي تَصَدَّق به وتَقَرَّب به إلى الله تعالى، ما عدا سَورةً من حَدٍّ كانتْ فيها، تسرع منها الفيئةَ، قالت: فاستأذنتْ على رسولِ الله -ﷺ-، ورسولُ الله -ﷺ- مع عائشةَ في مِرْطها على الحالة التي دخلَتْ فاطمة عليها، وهو بها، فأذِن لها رسولُ الله -ﷺ- فقالت: يا رسولَ الله، إنَّ أزواجَك أرسلنني إليك يسألْنَك العدلَ في ابنة أبي قحافة، قالت: ثم وقَعَتْ بي فاستطالَتْ عليَّ، وأنا أَرْقُب رسولَ الله -ﷺ- وأرْقُب طَرْفَه: هل يأذن لي فيها؟ قالت: فلم تَبرحْ زينبُ حتى عرَفَتْ أنَّ رسول الله -ﷺ- لا يَكْرَه أن أنتصِرَ، قالت: فلمَّا وقعتُ بها لم أنشبْها حين أنحيتُ عليها، قالت: فقال رسولُ الله -ﷺ- وتبسَّم: «إنَّها ابنةُ أبي بكر».

وكذلك ما جاءَ أنّ عمار بن ياسر لما جاء يستصرخ الناس ويستفزهم إلى قتال طلحة والزبير أيام الجمل، صعد هو والحسن بن علي على منبر الكوفة، فسمع عمارُ رجلًا ينال من عائشة فقال له: اسكت مقبوحًا منبوذًا، والله إنها لزوجة رسول الله -ﷺ- في الدنيا وفي الآخرة، ولكن الله ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أو إياها.

ومن خصائصها -ا- أنها كان لها في القسم يومان، يومها، ويوم سودة حين وهبَتْها ذلكَ تقربًا إلى رسول الله -ﷺ-، في قصةٍ رائعةٍ نسردها:

أوَّل امرأةٍ تزوَّجها النبيُّ -ﷺ- بعد خديجة -ا-، وأمها الشموس بنت قيس بن عمرو النجارية، وقيل بل تزوجها بعد أمِّنا سودة بنت زمعة.

كانت سودةُ -ا- أقل نساء النبي -ﷺ- شهرة ومكانة، وكانت أكبرهن سنًّا، فقد كانت زوجة للسكران بن عمرو -رضي الله عنه-، وهاجرت معه إلى الحبشة الهجرة الثانية، فمات عنها، قيل: في الحبشة، وقيل: بعدما رجع مكة من الحبشة.

وبقيت سودة بنت زمعة أرملة، لا تفكر في الزواج، وهي المرأة كبيرة السن، ثقيلة الحركة، لكنها كانت من الصالحات، المحبات لله ورسوله -ﷺ-.

وعن ابن عباس قال: كانت سودة بنت زمعة عند السكران بن عمرو -أخي سهيل بن عمرو- فرأت في المنام كأن النبي -ﷺ- أقبل يمشي حتى وطئ على عنقها، فأخبرت زوجها بذلك، فقال: وأبيك لئن صدقت رؤياك لأموتَنَّ وليتزوجنَّك رسول الله -ﷺ-. فقالت: حجرًا وسترًا (تنفي عن نفسها ذاك). ثم رأت في المنام ليلةً أخرى أنَّ قمرًا انقضَّ عليها من السماء وهي مضطجعة، فأخبرت زوجها، فقال: وأبيك لئن صدقت رؤياك لم ألبث إلَّا يسيرًا حتى أموت، وتتزوجين من بعدي. فاشتكى السكران من يومه ذلك، فلم يلبث إلَّا قليلًا حتى مات وتزوَّجها رسولُ الله -ﷺ-.

قالت خولة بنت حكيم السلمية امرأة عثمان بن مظعون: أيْ رسول الله، ألا تزوَّج؟ قال: «مَنْ؟» قلت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا. قال: «فَمَنِ الْبِكْرُ؟» قلت: ابنة أحب خلق الله إليك: عائشة بنت أبي بكر. قال: «وَمَنِ الثَّيِّبُ؟» قلت: سودة بنت زمعة بن قيس، آمنت بك، واتبعتك على ما أنت عليه. قال: «فَاذْهَبِي فَاذْكُرِيهِمَا عَلَيَّ». فجاءت فدخلت بيت أبي بكر، ثم خرجتُ فدخلتُ على سودة، فقلتُ: يا سودة، ما أدخل الله عليكم من الخير والبركة!

قالت: وما ذاك؟

قلت: أرسلني رسول الله -ﷺ- أخطبك عليه.

قالت: وَدِدْتُ، ادخلي على أبي فاذكري ذلك له.

قلت: وهو شيخٌ كبيرٌ قد تخلّف عن الحج، فدخلتُ عليه، فقلتُ: إنّ محمد بن عبد الله أرسلني أخطب عليه سودة.

قال: كفءٌ كريم، فماذا تقول صاحبتك؟

قالت: تحبُّ ذلك.

قال: ادعيها. فدعتها، فقال: إنَّ محمد بن عبد الله أرسل يخطبك وهو كفءٌ كريم، أفتحبِّين أن أزوِّجك؟

قالت: نعم.

قال: فادعيه لي. فدعته، فجاء فزوَّجها إيَّاه.

وقد كانت من محاسن سودة بنت زمعة -ا- أنها كانت تجيد فن التفاوض، وكانت عندها من الخلال والأخلاق ما يفوق نظيراتها، فقد كانت تجيد فن التفاوض في الحياة الزوجية.

ويظهر هذا من أول يوم في الهجرة بعد انتقالها من مكة إلى المدينة في بيت النبي -ﷺ-، وما أن بنى رسول الله -ﷺ- بعائشة، فلم تقارن نفسها بعائشة بعدِّها زوجة لرسول الله -ﷺ- كما أن عائشة زوجة له، بل هي أسبق منها في زواج الرسول -ﷺ- بها، لكنها تعلم مكانة عائشة وأبيها عند رسول الله -ﷺ-، فلم تدخلها معها فيما يعرف بين الضرائر من المنافسة، فسلمت زمام البيت من أول يوم تجيء فيه عائشة، فجعلتها هي سيدة البيت الأولى، وهي صاحبة التصرف، فكسبت رضا رسول الله -ﷺ-، وكانت هذه أول جولة تكسبها سودة بنت زمعة -ا-، فقد علمت حب النبي -ﷺ- لعائشة، فما كانت لتقدم نفسها عليها، فكسبت بذلك حب النبي -ﷺ- ورضاه.

ومرَّت الأيامُ، وتزوج النبي -ﷺ- بحفصة بنت عمر، وزينب بنت جحش، وأم سلمة -رضي الله عنهن-.

وشعَرَ النبيّ -ﷺ- بما قد نابها من الأذى النفسي، كونَ أمنا سودة لا تجد نفسها في مستوى زوجات النبي الأخريات، فأراد النبي -ﷺ- أن يخفف عنها ما هي فيه، فعرض عليها الطلاق، وقيل: إنهُ طلقها. فكأنما اسودَّت الدنيا في وجهها.

وبقيت سودة هذه الليلة في حيرة من أمرها بين رغبة الرسول -ﷺ- في طلاقها، وبين رغبتها في بقائها زوجة له، وقبيل الفجر لاحت لها فكرة ترضي بها رسول الله -ﷺ- وتعرض عليه أن تتنازل عن ليلتها لعائشة -ا- مقابل أن يبقيها زوجة له، فوافق النبي -ﷺ- على ذلك ورق لحالها، فأرجعها، وقيل: فيها نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ [سورة النساء، آية: 128].

نعودُ لأمنا عائشة -رضي اللهُ عنها-، ومن خصائصها -رضي اللهُ عنها- أنَّ النبي -ﷺ- مات في يومها وفي بيتها وبين سَحرها ونحرها، وجمع الله بين ريقه وريقها في آخر ساعة من ساعاته في الدنيا، وأول ساعة

من الآخرة، ودُفن في بيتها.

يروي البخاري أن السيدة عائشة -ا- كانت تقول: «إن من نِعم الله عليَّ أن رسول الله تُوُفِّي في بيتي، وفي يومي، وبين سَحْرِي ونحري».

والسَّحْر هو الرئة أو الصدر، والنحر هو الرقبة، وكان -عليه الصلاة والسلام- عند الوفاة مُسنِدًا رأسه إلى صدر ورقبة عائشة -ا-، ثم تكمل عائشة وتقول: «وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته».

ثم تفسر ذلك الكلام وتقول: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر (وهو أخوها)، وبيده السواك، وأنا مسنِدة رسول الله -ﷺ-، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أنْ نَعَمْ (لا يقوى على الكلام)، فتناولته فاشتد عليه (لم يستطع أن يستاك بالسواك الجاف)، وقلت: ألَيِّنه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فليَّنته، فأَمَرَّه (وفي رواية: أنه استنَّ بها كأحسن ما كان مستنًّا)، وبين يديه ركوة -إناء من جلد- فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بها وجهه يقول: «لا إِلَهَ إِلا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ».

وفي رواية عن الترمذي، والنسائي، وابن ماجه: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى سَكَرَاتِ الْمَوْتِ».

وعندما فرغ من السواك -ﷺ- ورفع يده أو إصبعه، وشخص ببصره نحو السقف، وتحركت شفتاه بكلمات يتمتم بها في صوت خفيض، أصغت عائشة إلى آخر ما يقول -ﷺ- من كلمات في حياته، فسمعته يقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى، اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى، اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى، اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى﴾. ثم مالت يده، وقُبضت روحه -ﷺ-.

وقد قال الإمام أحمد: عن عدة رواة عن عائشة، عن النبي -ﷺ-: قال: «إنه ليهون عليَّ أني رأيت بياض كف عائشة في الجنة» تفرد به أحمد.

وهذا في غاية ما يكون من المحبة العظيمة أنه يرتاح لأنه رأى بياض كفها أمامه في الجنة.

ومن خصائصها: أنها أعلم نساء النبي -ﷺ-، بل هي أعلم النساء على الإطلاق، وكانت لملازمة أمنا عائشة لنبيِّنا -عليه الصلاة والسلام- الدور الكبير في نقل الكثير من أحكام الدين الإسلامي والأحاديث النبوية.

قال الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواجه وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل.

وقال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيًا في العامة.

وقال عروة: ما رأيت أحدًا أعلم بفقه، ولا طب، ولا شعر من عائشة.

ولم تَرِ امرأة ولا رجل غير أبي هريرة عن رسول الله -ﷺ- من الأحاديث بقدر روايتها -ا-.

وكان أكابر الصحابة يسألونها فيما استُشكل عليهم، إذ قال أبو موسى الأشعري: ما أشكل علينا أصحاب محمد حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا. رواه الترمذي.

وقال أبو الضحى عن مسروق: رأيت مشيخة أصحاب محمد الأكابر يسألونها عن الفرائض، ثم لم يكن في النساء أعلم من تلميذاتها عمرة بنت عبد الرحمن، وحفصة بنت سيرين، وعائشة بنت طلحة.

وقد تفردت أم المؤمنين عائشة بمسائل عن الصحابة لم توجد إلا عندها، وانفردت باختيارات أيضًا، وردت أخبار بخلافها بنوع من التأويل.

وقد جمع ذلك غير واحد من الأئمة، فمن ذلك قال الشعبي: كان مسروق إذا حدث عن عائشة قال: حدثتني الصدِّيقة بنت الصدِّيق، حبيبة رسول الله، المبرأة من فوق سبع سماوات.

وقال الحاكم في المستدرك: «إنَّ رُبْعَ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ نُقِلَت عَن السَّيِّدَة عَائِشَة».

وكانت من الفصاحة والبلاغة ما جعل الأحنف بن قيس يقول: «سَمِعْتُ خُطْبَةَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَعُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ، وَعُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ، وَعَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ -رضي الله عنهم-، وَالْخُلَفَاءِ هَلُمَّ جرا إِلَى يَوْمِي هَذَا، فَمَا سَمِعْتُ الْكَلامَ مِنْ فَمِ مَخْلُوقٍ، أَفْخَمَ، وَلا أَحْسَنَ مِنْهُ مِنْ فِيِّ عَائِشَةَ -ا-».

وهي الصدِّيقة التي سلَّمَ عليها جبريلُ -عليهِ السلام-.

ففي الحديث ما روى البخاري: عن عائشة، أن النبي -ﷺ- قال يومًا: «يا عائشة، هذا جبريل يقرئك السلام».

فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى.

وهي التي حدثَ لها ما لم يحدُث معَ أزواج النبيِّ الطاهراتِ -رضوان اللهُ عليهم-، حيثُ اتُّهِمَتْ بالإفكِ وبرَّأها اللهُ -سبحانهُ وتعالى-. ولندَعْ لعائشة -رضي اللهُ عنها- سردَ القصة:

قَالَتْ عَائِشَةُ -ا-: كَانَ رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ الله -ﷺ- مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ الله -ﷺ- بَعْدَمَا أُنْزِلَ الحِجَابُ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ الله -ﷺ- مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، دَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ فَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلاَ مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي، غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ

عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَوَاللهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ، قَالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الإِفْكِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ، فَيُقِرُّهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ، وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، فِي نَاسٍ آخَرِينَ لاَ عِلْمَ لِي بِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى... قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لاَ أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللهِ -ﷺ- اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ»، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلاَ أَشْعُرُ بِالشَّرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ، وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا... قَالَتْ: فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ فَقَالَتْ: أَيْ هَنْتَاه وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: وَقُلْتُ: مَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، قَالَتْ: فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تِيكُمْ»، فَقُلْتُ لَهُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ -ﷺ-، فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ، مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، لَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ، أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي، قَالَتْ: وَدَعَا رَسُولُ اللهِ -ﷺ- عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ، يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللهِ -ﷺ- بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ، وَلاَ نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ -ﷺ- بَرِيرَةَ، فَقَالَ:«أَيْ بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟». قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ، وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ، فَقَالَ:«يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي» قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَعْذِرُكَ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَهُوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، قَالَتْ: وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لاَ تَقْتُلُهُ، وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ

لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، قَالَتْ: فَثَارَ الحَيَّانِ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ الله -ﷺ- قَائِمٌ عَلَى المِنْبَرِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله -ﷺ- يُخَفِّضُهُمْ، حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ، قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا، لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، حَتَّى إِنِّي لَأَظُنُّ أَنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ الله -ﷺ- عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لاَ يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ الله -ﷺ- حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ»، قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ الله -ﷺ- مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ الله -ﷺ- عَنِّي فِيمَا قَالَ: فَقَالَ أَبِي: وَالله مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ الله -ﷺ-، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ الله -ﷺ- فِيمَا قَالَ: قَالَتْ أُمِّي: وَالله مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ الله -ﷺ-، فَقُلْتُ -وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لاَ أَقْرَأُ مِنَ القُرْآنِ كَثِيرًا- إِنِّي وَالله لَقَدْ عَلِمْتُ، لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ، لاَ تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَالله يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ، لَتُصَدِّقُنِّي، فَوَالله لاَ أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة يوسف، آية: 18]، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَالله يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَالله مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الله مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ الله -ﷺ- فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا، فَوَالله مَا رَامَ رَسُولُ الله -ﷺ- مَجْلِسَهُ، وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ العَرَقِ مِثْلُ الجُمَانِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ القَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ الله -ﷺ- وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ» قَالَتْ: فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَالله لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، فَإِنِّي لاَ أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ-، قَالَتْ: وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

يحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [سورة النور، آية: 11- 21] العَشْرَ الآيَاتِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ الله -ﷺ- سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لِزَيْنَبَ: «مَاذَا عَلِمْتِ، أَوْ رَأَيْتِ؟». فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ -ﷺ- فَعَصَمَهَا اللهُ بِالوَرَعِ... رواه البخاري ومسلم.

ولها من الفضائل والأمور ما شُهِدَ لها بهِ في حياتها وحتى عند موتها -رضيَ اللهُ عنها-، ومن ذلك ما قالهُ الإمام أحمد: عن عدة رواة عن عبد الله بن أبي مليكة أنه حدثه ذكوان -حاجب عائشة-: أنه جاء عبد الله بن عباس يستأذن على عائشة فجئتُ، وعند رأسها عبد الله بن أخيها عبد الرحمن.

فقلت: هذا ابن عباس يستأذن.

فأكَبَّ عليها ابن أخيها عبد الله (أيْ توجَّهَ لها بالحديث) فقال: هذا عبد الله بن عباس يستأذن -وهي تموت-.

فقالت: دعني من ابن عباس.

فقال: يا أماه! إن ابن عباس من صالح بنيك يسلم عليك ويودعك.

فقالت: ائذن له إن شئت.

قال: فأدخلته، فلما جلس قال: أبشري.

فقالت: بماذا؟

فقال: ما بينك وبين أن تلقي محمدًا والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، وكنت أحب نساء رسول الله -ﷺ- إليه، ولم يكن رسول الله -ﷺ- يحب إلا طيبًا، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء فأصبح رسول الله -ﷺ- وأصبح الناس وليس معهم ماء، فأنزل الله آية التيمم، فكان ذلك في سببك، وما أنزل الله من الرخصة لهذه الأمة، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات، جاء بها الروح الأمين، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله إلا يُتلى فيه آناء الليل وآناء النهار.

فقالت: دعني منك يا بن عباس، والذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسيًا منسيًّا.

والأحاديث في فضائلها ومناقبها كثيرة جدًّا.

وقد كانت وفاتها سنة ثمانٍ وخمسين، وقيل: قبله بسنة، وقيل: بعده بسنة، والمشهور في رمضان منه.

وقيل: في شوال، والأشهر ليلة الثلاثاء السابع عشر من رمضان.

وأوصت أن تُدفن بالبقيع ليلًا، وصلى عليها أبو هريرة بعد صلاة الوتر، ونزل في قبرها خمسة، وهم: عبد الله وعروة ابنا الزبير بن العوام، من أختها أسماء بنت أبي بكر، والقاسم وعبد الله ابنا أخيها محمد بن أبي بكر، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر.

رضي الله تعالى عن أبيها وعن الصحابة أجمعين.

حَلِيمةُ السَّعديَّةُ

أُمُّ الرَّسول -ﷺ- مِنَ الرَّضَاعِ

هذه السَّيِّدة الرصان الرزان[120] أثيرة لدى كل مسلم، عزيزة على كل مؤمنٍ، فمن ثدييها الطاهرين رضع الغلام السعيد محمد بن عبد الله -صلوات الله وسلامه عليه-، وعلى صدرها المفعم بالمحبة غفا، وفي حجرها الطافح بالحنان درج، ومن فصاحتها وفصاحة قومها بني «سعدٍ» نهل، فكان من أبين الأبيناء[121] كلامًا، وأفصح الفصحاء نطقًا. إنَّها السَّيِّدة الجليلة حليمة السَّعديَّة أمُّ نبيِّنا محمدٍ -صلوات الله وسلامه عليه- من الرَّضاع.

ولإرضاع السَّيِّدة السَّعديَّة للطفل المبارك الذي ملأ الدنيا برًّا ومرحمةً، وأترعها خيرًا وهديًا، وزانها خلقًا وفضلًا -قصةٌ من روائع القصص، حكتها حليمة السَّعديَّة ببيانها المشرق الأنيق الجذاب،

وأسلوبها المتألِّق الرَّشيق الممتع.

فتعالوا نستمع إليها...

فخبرها عن النَّبيِّ الكريم -ﷺ- من روائع الأخبار.

قالت حليمة السَّعديَّة:

خرجت من منازلنا أنا وزوجي[122] وابن لنا صغيرٌ نلتمس الرُّضعاء[123] في مكَّة، وكان معنا نسوةٌ من قومي بني سعدٍ قد خرجن لمثل ما خرجت إليه، وكان ذلك في سنةٍ قاحلةٍ مجدبةٍ[124]، أيبست الزَّرع، وأهلكت الضَّرع فلم تبقِ لنا شيئًا. وكان معنا دابَّتان عجفاوان[125] مسنَّتان لا ترشحان[126] بقطرة من لبنٍ، فركبت أنا وغلامي الصَّغير إحداهما، أمَّا زوجي فركب الأخرى، وكانت ناقته أكبر سنًّا وأشدَّ هُزالًا.

وكنا والله ما ننام لحظة في ليلنا كلِّه لشدَّة بكاء طفلنا من الجوع، إذ لم يكن ثديي ما يغنيه، ولم يكن في ضرعي ناقتنا ما يغذِّيه، ولقد أبطأنا بالرَّكب بسبب هُزال أتاننا[127] وضعفها فضجر رفاقنا منَّا،

وشقَّ عليهم السَّفر بسببنا.

فلمَّا بلغنا مكَّة وبحثنا عن الرُّضعاء وقعت في أمر لم يكن بالحسبان، ذلك أنه لم تبقَ امرأةٌ إلا وعُرض عليها الغلام الصَّغير محمَّد بن عبد الله، فكنَّا نأباه لأنَّه يتيم، وكنَّا نقول:

ما عسى أن تنفعنا أمُّ صبيٍّ لا أب له؟! وما عسى أن يصنع لنا جدُّه؟!

ثمَّ إنَّه لم يمضِ علينا غير يومين اثنين حتَّى ظفرت كلُّ امرأة معنا بواحد من الرُّضعاء، أما أنا فلم أظفر بأحدٍ، فلمَّا أزمعنا الرَّحيل قلت لزوجي: إنِّي لأكره أن أرجع إلى منازلنا وألقى بني قومنا خَاوية الوِفَاض[128] دون أن آخذ رضيعًا، فليس في صُويحباتي امرأةٌ إلا ومعها رضيعٌ. والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم، ولآخذنَّه.

فقال لي زوجي: لا بأس عليك، خذيه فعسى أن يجعل الله فيه خيرًا.

فذهبت إلى أمِّه وأخذته، ووالله ما حملني على أخذه إلا أنِّي لم أجد غلامًا سواه. فلمَّا رجعت به إلى رحلي وضعته في حجري، وألقمته ثديي، فدرَّ عليه من اللَّبن ما شاء الله أن يدرَّ بعد أن كان خاويًا خاليًا، فشرب الغلام حتَّى رَوِي، ثمَّ شرب أخوه حتَّى رَوِي أيضًا، ثمَّ ناما، فاضَّطجعت أنا وزوجي إلى جانبهما لننام بعد

أن كنَّا لا نحظى بالنوم إلا غرارًا[129] بسبب صبيِّنا الصغير. ثمَّ حانت من زوجي التفاتةٌ إلى ناقتنا المسنَّة العجفاء، فإذا ضرعاها حافلان ممتلئان، فقام إليها دهِشًا، وهو لا يصدِّق عينيه وحلب منها وشرب، ثمَّ حلب لي فشربت معه حتَّى امتلأنا ريًّا وشبعًا، وبتنا في خير ليلةٍ.

فلمَّا أصبحنا قال لي زوجي: أتدرين يا حليمة أنَّك قد ظفرت بطفل مبارك؟!

فقلت له: إنَّه لكذلك وإني لأرجو منه خيرًا كثيرًا.

ثمَّ خرجنا من مكَّة فركبت أتاننا المسنَّة، وحملته معي عليها، فمضت نشيطة تتقدَّم دوابَّ القوم جميعًا حتَّى ما يلحق بها أيٌّ من دوابِّهم. فجعلت صواحبي يقلن لي:

ويحك يا بنة أبي ذُؤيب، تمهَّلي علينا، أليست هذه أتانك المسنَّة التي خرجتم عليها؟!

فأقول لهنَّ: بلى... والله إنَّها هي.

فيقلن: والله إنَّ لها لشأنًا.

ثمَّ قدمنا منازلنا في بلاد بني سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أشدُّ قحطًا منها ولا أقسى جدبًا، لكنَّ غنمنا جعلت تغدو إليها مع كلِّ صباح، فترعى فيها ثمَّ تعود مع المساء، فنحلب منها ما شاء الله أن نحلب، ونشرب من لبنها ما طاب لنا أن نشرب، وما يحلب أحدٌ غيرنا من غنمه قطرةً.

فجعل بنو قومي يقولون لرعيانهم: ويلكم، اسرحوا بغنمكم حيث يسرح راعي بنت أبي ذُؤيب.

فصاروا يسرحون بأغنامهم وراء غنمنا، غير أنَّهم كانوا يعودون بها وهي جائعةٌ ما ترشح لهم بقطرةٍ.

ولم نزل نتلقَّى من الله البركة والخير حتَّى انقضت سنتا رضاع الصَّبيِّ، وفُطِم...

وكان خلال عاميه هذين ينمو نموًّا لا يشبه نمو أقرانه، فهو ما كاد يتم سنتيه عندنا حتَّى غدا غلامًا قويًّا مكتملًا.

عند ذلك قدمنا به على أمِّه، ونحن أحرص ما نكون على مكثه عندنا، وبقائه فينا، لما كنَّا نرى في بركته، فلمَّا لقيت أمَّه طمأنتها عليه وقلت: ليتك تتركين بُنيَّ عندي حتَّى يزداد فُتوَّةً وقُوَّةً، فإني أخشى عليه وباء مكَّة.

ولم أزل بها أقنعها وأرغِّبها حتَّى ردَّته معنا، فرجعنا به فرحين مستبشرين.

ثمَّ إنه لم يمض على مقدم الغلام معنا غير أشهرٍ معدودات حتَّى وقع له أمر أخافنا، وأقلقنا، وهزَّنا هزًّا، فلقد خرج ذات صباح مع أخيه في غنيماتٍ لنا يرعيانها خلف بيوتنا، فما هو إلا قليلٌ حتَّى أقبل علينا أخوه يعدو، وقال: الحقا بأخي القرشيِّ، فقد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ فأضجعاه وشقَّا بطنه.

فانطلقت أنا وزوجي نغدو نحو الغلام، فوجدناه منتقع الوجه[130] مرتجفًا، فالتزمه زوجي وضممته إلى صدري وقلت له: مالك يا بُنيَّ؟!

فقال: جاءني رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ فأضجعاني وشقَّا بطني، والتمسا شيئًا فيه لا أدري ما هو، ثمَّ خلَّياني ومضيا.

فرجعنا بالغلام مضطربين خائفين. فلمَّا بلغنا خباءنا التفت إليَّ زوجي وعيناه تدمعان، ثمَّ قال:

إنِّي لأخشى أن يكون هذا الغلام المبارك قد أُصيب بأمر لا قبل لنا بردِّه، فألحقيه بأهله، فإنَّهم أقدر منَّا على ذلك.

فاحتملنا الغلام ومضينا به حتَّى بلغنا مكَّة، ودخلنا بيت أمِّه، فلمَّا رأتنا حدَّقت إلى وجه ولدها، ثمَّ بادرتني قائلة: ما أقدمك بمحمَّد يا حليمة وقد كنتِ حريصةً عليه شديدة الرَّغبة في مُكثه عندك؟! فقلت: لقد قوي عوده، واكتملت فتوَّته، وقضيت الذي عليَّ نحوه، وتخوفت عليه من الأحداث فأدَّيته إليك.

فقالت: أصدقيني الخبر، فما أنت بالتي ترغب[131] عن الصَّبيِّ لهذا الذي ذكرته.

ثمَّ ما زالت تلحُّ عليَّ ولم تدعني حتَّى أخبرتها بما وقع له، فهدأت ثمَّ قالت: وهل تخوَّفت عليه الشَّيطان يا حليمة؟

فقلتُ: نعم.

فقالت: كلا، والله ما للشَّيطان عليه من سبيل، وإنَّ لابني لشأنًا، فهل أخبرك خبره؟

فقلتُ: بلى.

قالت: رأيت حين حملت به أنَّه خرج منِّي نورٌ أضاء لي قصور بُصرى من أرض الشَّام، ثمَّ إنِّي حين ولدته نزل واضعًا يديه على الأرض، رافعًا رأسه إلى السَّماء.

ثمَّ قالت: دعيه عنك، وانطلقي راشدةً، وجُزيت عنَّا وعنه خيرًا.

فمضيت أنا وزوجي محزونين أشدَّ الحزن على فراقه، ولم يكن غلامنا بأقلَّ منَّا حزنًا عليه، وأسًى ولوعةً على فراقه.

وبعدُ... فلقد عاشت حليمة السَّعديَّة حتَّى بلغت من الكبر عتيًّا[132]...

ثمَّ رأت الطِّفل اليتيم الذي أرضَعتهُ، قد غدا للعرب سيِّدًا، وللإنسانيَّة مرشدًا، وللبشرية نبيًّا، ولقد وفدت عليه بعد أن آمنت به وصدَّقت بالكتاب الذي أُنزل عليه، فما إن رآها حتَّى استطار بها سرورًا، وطفق يقول: «أُمِّي...أُمِّي...».

ثمَّ خلع لها رداءه، وبسطه تحتها، وأكرم وِفادتها أبلغ الإكرام، وأعين الصَّحابة تنظر إليه وإليها في غبطةٍ وإجلالٍ.

صلوات الله وسلامه على محمَّد البرِّ الوفيِّ...

صاحب الخلق الكريم...

ورضوان الله على السَّيِّدة حليمة السَّعديَّة...

ظئر[133] النَّبيِّ العظيم -ﷺ-(*)...

الرزان: الرصينة الرزينة.

الأبيناء: جمع بيِّن، وهو ما يفصح عن كلامه بأحسن التبيين.
زوجها: هو الحارث بن عبد العزى السَّعدي ويكنى بأبي كبشة، أما ابنها: فاسمه عبد الله.
نلتمس الرُّضعاء: نبحث عن المولدين الجدد.
مجدبة: لا مطر فيها ولا نبات.
العجف: الهزال.
لا ترشحان: لا تقطر ضروعها بقطرة لبن.
الأتان: أنثى الحمار.
خَاوِيَة الوِفَاض: الوفاض هو جلدة توضع تحت الرحى لتلقى الطحين، وخالية الوفاض: كناية عن الحاجة الشديدة والإفلاس التام.
غرارًا: قليلًا.
انتقع وجهه: أي تغير لونه.
ترغب عنه: تزهد به ولا تريده.
عتيًّا: جاوزت حدًّا كبيرًا من العمر.
الظِئر: هي المرضعة غير الأم.

(*) للاستزادة من أخبار حليمة السَّعديَّة انظر:

1- تاريخ الطبري: 970/ 2 وانظر الفهارس في العاشر.
2- الطبقات الكبرى: 110/ 1، 151 و50/ 4.
3- حياة الصحابة: انظر الفهارس في الرابع.
4- الاستيعاب «على هامش الإصابة»: 270/ 4.
5- السيرة لابن هشام: انظر الفهارس.
6- الإصابة في تمييز الصحابة: 274/ 4 «الترجمة» 2990.
7- أعلام النساء لكحالة: 290/ 1.
8- صفوة الصفوة: 57/ 1.
9- ابن كثير: 273/ 2.
10- أسد الغابة: 67/ 7.
11- دلائل النبوة: 111.
12- المحبر: 10، 130.

صفيَّة بِنْتُ عَبْدِ المطَّلب

«صفيَّة أَوَّلُ امرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ
قَتَلَتْ مُشْرِكًا دِفَاعًا عَنْ دِينِ اللّهِ»

هذه السَّيِّدة الجزلة الرَّزان[134] التي كان يحسب لها الرِّجال ألف حساب...

الصَّحابيَّة الباسلة التي كانت أوَّل امرأة قتلت مشركًا في الإسلام...

المرأة الحازمة التي أنشأت للمسلمين أوَّل فارسٍ سلَّ سيفًا في سبيل الله...

إنَّها صفيَّة بنت عبد المطَّلب الهاشميَّة القرشيَّة عمَّة رسول الله -ﷺ-.

اكتنف المجد صفيَّة بنت عبد المطَّلب من كلِّ جانب:

فأبوها، عبد المطَّلب بن هاشم جدُّ النَّبيِّ -ﷺ- وزعيم قريش وسيِّدها المطاع.

وأمُّها، هالة بنت وهبٍ أخت آمنة بنت وهب والدة الرَّسول -ﷺ-.

وزوجها الأوَّل، الحارث بن حرب أخو أبي سفيان ابن حرب زعيم بني «أميَّة»، وقد توفِّي عنها.

وزوجها الثَّاني، العوَّام بن خويلد أخو خديجة بنت خويلد سيِّدة نساء العرب في الجاهليَّة، وأولى أمَّهات المؤمنين في الإسلام.

وابنها الزُّبير بن العوَّام حواريُّ رسول الله-ﷺ-.

أفبعد هذا الشَّرف شرفٌ تطمح إليه النُّفوس غير شرف الإيمان؟!

لقد توفِّي عنها زوجها العوَّام بن خويلد وترك لها طفلًا صغيرًا هو ابنها «الزُّبير»، فنشَّأته على الخشونة والبأس، وربَّته على الفروسيَّة والحرب، وجعلت لعبته في بري السِّهام وإصلاح القسيِّ.

ودأبت على أن تقذفه في كلِّ مخوفةٍ[135] وتقحمه[136] في كلِّ خطرٍ، فإذا رأته أحجم أو تردَّد ضربته ضربًا مبرِّحًا، حتَّى إنَّها عوتبت في ذلك من قِبل أحد أعمامه، إذ قال لها:

ما هكذا يُضرب الولد، إنَّك تضربينه ضرب مبغضةٍ لا ضرب أمٍّ.

فارتجزت[137] قائلةً:

مَن قَال أبغَضتُهُ فَقَد كَذَب وإنَّما أَضربُهُ لِكَي يَلِبْ[138] وَيَهْزِمَ الجَيشَ وَيَأتِي بِالسَّلَبْ.

ولمَّا بعث الله نبيَّه بدين الهدى والحقِّ، وأرسله نذيرًا وبشيرًا للنَّاس، وأمره بأن يبدأ بذوي قُرباه، جمع بني عبد المطَّلب؛ نساءهم ورجالهم وكبارهم وصغارهم، وخاطبهم قائلًا:

«يا فاطمة[139] بنت محمَّد، يا صفيَّة بنت عبد المطَّلب، يا بني عبد المطَّلب، إنِّي لا أملك لكم من الله شيئًا».

ثمَّ دعاهم إلى الإيمان بالله، وحضَّهم على التصديق برسالته، فأقبل على النور الإلهيِّ منهم من أقبل، وأعرض عن سَنَاه[140] من أعرض، فكانت صفيَّة بنت عبد المطَّلب في الرَّعيل[141] الأوَّل من المؤمنين المصدِّقين. عند ذلك جمعت صفيَّة المجد من أطرافه: سُؤدد الحسب، وعِزِّ الإسلام.

انضمَّت صفيَّة بنت عبد المطَّلب إلى موكب النُّور هي وفتاها الزُّبير بن العوَّام، وعانت ما عاناه المسلمون السَّابقون من بأس قريش وعنتها وطغيانها.

فلمَّا أذن الله لنبيِّه والمؤمنين معه بالهجرة إلى المدينة خلّفت السَّيِّدة الهاشميَّة وراءها مكَّة بكل ما لها فيها من طيوب الذِّكريات، وضروب المفاخر والمآثر ويمَّمت وجهها شطر المدينة، مهاجرةً إلى الله ورسوله.

وعلى الرَّغم من أنَّ السَّيِّدة العظيمة كانت يومئذٍ تخطو نحو السِّتِّين من عمرها المديد الحافل، فقد كان لها في ميادين الجهاد مواقف لا يزال يذكرها التَّاريخ بلسانٍ نديٍّ بالإعجاب رطيبٍ بالثَّناء، وحسبنا من هذه المواقف مشهدان اثنان:

كان أولهما يوم «أحدٍ».

وثانيهما يوم «الخندق».

أمَّا ما كان منها في «أحد»، فهو أنَّها خرجت مع جند المسلمين في ثلَّةٍ[142] من النِّساء جهادًا في سبيل الله، فجعلت تنقل الماء، وتروي العطاش، وتبري السِّهام، وتُصلح القِسيَّ[143].

وكان لها مع ذلك غرضٌ آخر، هو أن ترقب المعركة بمشاعرها كلِّها. ولا غرو[144] فقد كان في ساحتها ابن أخيها محمَّدٌ رسول الله -ﷺ-، وأخوها حمزة بن عبد المطَّلب أسدُ الله، وابنها الزُّبير بن العوَّام حواريُّ[145] نبيِّ الله -ﷺ-.

وفي المعركة -قبل ذلك كلِّه وفوق ذلك كلِّه- مصير الإسلام الذي اعتنقته راغبةً، وهاجرت في سبيله محتسبةً، وأبصرت من خلاله طريق الجنَّة.

ولمَّا رأت المسلمين ينكشفون[146] عن رسول الله -ﷺ- إلا قليلًا منهم، ووجدت المشركين يوشكون أن يصلوا إلى النَّبيِّ -ﷺ- ويقضوا عليه، طرحت سقاءها أرضًا، وهبَّت كاللَّبؤة[147] التي هوجم أشبالها وانتزعت من يد أحد المنهزمين رُمحه، ومضت تشقُّ به الصُّفوف، وتضرب بسنانه الوجوه، وتزأر في المسلمين قائلةً: ويحكم، انهزمتم عن رسول الله؟!

فلمَّا رآها النَّبي -عليه الصَّلاة والسَّلام- مقبلةً خشي عليها أن ترى أخاها حمزة وهو صريعٌ، وقد مثَّل به المشركون أبشع تمثيلٍ[148] فأشار إلى ابنها الزُّبير قائلًا: «المرأة يا زبير... المرأة يا زبير...».

فأقبل عليها الزُّبير وقال: يا أمَّه إليك... إليك يا أمَّه[149].

فقالت: تنحَّ لا أمَّ لك.

فقال: إنَّ رسول الله يأمرك أن ترجعي.

فقالت: ولم؟! إنَّه قد بلغني أنه مُثِّل بأخي، وذلك في الله...

فقال له الرَّسول -ﷺ-: «خلِّ سبيلها يا زُبير».

فخلَّى سبيلها.

ولمَّا وضعت المعركة أوزارها، وقفت صفيَّة على أخيها حمزة فوجدته قد بُقر[150] بطنه، وأُخرجت كبده، وجُدِع أنفه[151]، وصُلمت أذناه[152]، وشوِّه وجهه، فاستغفرت له، وجعلت تقول:

إنّ ذلك في الله، لقد رضيت بقضاء الله. والله لأصبرنّ، ولأحتسبنَّ[153] إن شاء الله.

كان ذلك موقف صفيَّة بنت عبد المطَّلب يوم «أحد». أمَّا موقفها يوم «الخندق» فله قصَّةٌ قصيرةٌ مثيرةٌ سُداها الدَّهاء والذَّكاء، ولُحمتُها[154] البسالةُ والحزم... فإليك[155] خبرها كما وعته كتب التَّاريخ.

لقد كان من عادة رسول الله -ﷺ- إذا عزم على غزوة من الغزوات أن يضع النِّساء والذَّراري في الحصون خشية أن يغدر بالمدينة غادرٌ في غيبة حماتها.

فلمَّا كان يوم «الخندق» جعل نساءه وعمَّته وطائفة من نساء المسلمين في حصن لحسَّان بن ثابت[156] ورثه عن آبائه، وكان من أمنع حصون المدينة مناعةً وأبعدها منالًا.

وبينما كان المسلمون يرابطون على حافات[157] الخندق في مواجهة قريش وأحلافها، وقد شُغلوا عن النِّساء والذَّراري بمنازلة العدو، أبصرت صفيَّة بنت عبد المطَّلب شبحًا يتحرَّك في عتمة الفجر، فأرهفت له السَّمع، وأحدَّت إليه البصر، فإذا هو يهوديٌّ أقبل على الحصن، وجعل يُطيف به متحسِّسًا أخباره متجسِّسًا على من فيه.

فأدركت أنَّه عينٌ[158] لبني قومه جاء ليعلم أفي الحصن رجالٌ يدافعون عمَّن فيه، أم إنَّه لا يضمُّ بين جدرانه غير النِّساء والأطفال.

فقالت في نفسها: إنَّ يهود بني «قُريظة» قد نقضوا ما بينهم وبين رسول الله من عهدٍ وظاهروا[159] قريشًا وأحلافها على المسلمين، وليس بيننا وبينهم أحدٌ من المسلمين يدافع عنَّا، ورسول الله -ﷺ- ومن معه مرابطون في نحور[160] العدوِّ، فإن استطاع عدوُّ الله أن ينقل إلى قومه حقيقة أمرنا سبى اليهود النِّساء واسترقوا الذَّراري، وكانت الطَّامَّة[161] على المسلمين.

عند ذلك بادرت إلى خمارها فلفَّتهُ على رأسها، وعمدت إلى ثيابها فشدَّتها على وسطها، وأخذت عمودًا على عاتقها[162]، ونزلت إلى باب الحصن فشقَّته في أناةٍ وحذقٍ، وجعلت ترقب من خلاله عدوَّ الله في يقظةٍ وحذرٍ، حتَّى إذا أيقنت أنَّه غدا في موقفٍ يُمكِّنُها منه، حملت عليه حملةً حازمةً صارمةً، وضربته بالعمود على رأسه فطرحته أرضًا.

ثمَّ عزَّزت الضَّربة الأولى بثانيةٍ وثالثةٍ حتَّى أجهزت عليه، وأخمدت أنفاسه بين جنبيه، ثمَّ بادرت إليه فاحتزَّت رأسه بسكِّين كانت معها، وقذفت بالرَّأس من أعلى الحصن، فطفق يتدحرج على سفوحه حتَّى استقرَّ بين أيدي اليهود الذين كانوا يتربَّصون[163] في أسفله. فلمَّا رأى اليهود رأس صاحبهم، قال بعضهم لبعض: قد علمنا أنَّ محمدًا لم يكن ليترك النِّساء والأطفال من غير حُماةٍ.

ثمَّ عادوا أدراجهم.

رضي الله عن صفيَّة بنت عبد المطَّلب، فقد كانت مثلًا فذًّا للمرأة المسلمة، ربَّت وحيدها فأحكمت تربيته، وأصيبت بشقيقها فأحسنت الصَّبر عليه، واختبرتها الشَّدائد فوجدت فيها المرأة الحازمة العاقلة الباسلة...

ثمَّ إنّ التَّاريخ كتب في أنصع صفحاته:
إن صفيَّة بنت عبد المطَّلب كانت أوَّل امرأةٍ قتلت مشركًا في الإسلام(*).

الجزلة: أصيلة الرأي، والرَّزان: الرصينة الرزينة.
مخوفة: موقف يخاف منه.
تُقحمه: تدفعه وتدخله.
ارتجزت: قالت شعرًا على بحر الرجز.
يلِب: يصبح لبيبًا، واللبيب: الذكي العاقل.
انظرها ص 35.
سناه: ضياؤه.
الرَّعيل الأوَّل: الفوج الأول.
ثلة: طائفة.
القِسيَّ: جمع قوس وهو آلة الحرب يرمى بها بالسِّهام.
لا غرو: لا عجب.
الحواري: الناصر، وحواريو الرسل: الخاصة من أنصارهم.
ينكشفون: يتفرقون.
اللبؤة: أنثى الأسد.
التمثيل: تشويه جسد الميت.
إليك يا أمه: ابتعدي يا أماه.
بقر بطنه: شُقَّ بطنه.
جدع أنفه: قطع أنفه.
صلمت أذناه: قطعت أذناه.
لأحتسبنَّ: لأجعلن ذلك المصاب في الله ولأطلبنَّ الأجر عليه منه.
السُّدى: الخيوط الطوليَّة للنسيج، واللحمة: الخيوط العرضية.
إليك خبرها: خذ خبرها.
حسَّان بن ثابت: شاعر رسول الله -ﷺ- والمدافع عن الإسلام بشعره، توفي وله مائة وعشرون سنة قضى نصفها في الجاهلية ونصفها في الإسلام.
حافات الخندق: أطرافه.
عين لبني قومه: جاسوس لهم.
ظاهروا قريشًا: أعانوا قريشًا.
في نحور العدو: في وجوه العدو وقبالته.
الطامة: المصيبة الكبرى، وسميت القيامة طامة لأنها تطم كل شيء، أي تعم ولا تترك شيئًا.
على عاتقها: على كتفها.
يتربصون: ينتظرون ويترقبون.
(*) للاستزادة من أخبار صفيَّة بنت عبد المطَّلب انظر:
1- الإصابة: 348/ 4 «الترجمة» 654.
2- السيرة النبوية لابن هشام: «انظر الفهارس».
3- المستطرف للأبشيهي: «انظر الفهرس».
4- حياة الصحابة: 154/ 1 «وانظر الفهارس».
5- الأغاني لأبي الفرج: «انظر الفهارس».
6- ذيل تاريخ الطبري: «انظر الفهارس».
7- أعلام النساء لكحالة: 341/ 2-346.

8- الكامل في التاريخ: «انظر الفهارس».
9- المعارف لابن قتيبة: «انظر الفهارس».
10- الاستيعاب بهامش الإصابة: 345/ 4.
11- أسد الغابة: 172/ 7.
12- فتوح البلدان للبلاذري.
13- الطبقات الكبرى: 41/ 8.
14- سير أعلام النبلاء: 193/ 2.
15- سمط اللآلئ: 18/ 1.
16- ابن كثير: 108/ 4.

فَاطِمَةُ الزَّهراء

رَيْحَانَةُ رَسُولِ اللّه -ﷺ-

قصَّة حياة فاطمة الزَّهراء فصلٌ مشرقٌ من سيرة الرَّسول العظيم -ﷺ-، وصورةٌ رائعةٌ من صور حياة بيت النُّبوَّة الكريم، ومثلٌ رائعٌ لما كان عليه الصحابة الكرام.

وُلِدت فاطمة الزَّهراء -رضوان الله عليها- سنة بناء الكعبة قبل البعثة المحمَّديَّة بخمس سنين.

أمَّا أمُّها، فسيِّدةٌ رزانٌ جمعت العقل الحصيف[165] إلى النَّسب الشَّريف، وضمَّت إلى ذلك الخلائق الفاضلة، والثَّروة الطَّائلة، فكانت تُدعى في الجاهليَّة بالطَّاهرة، وتُنعت بسيِّدة نساء قريشٍ.

آمنت بالرَّسول -ﷺ- إذ كفر به النَّاس، وصدَّقته إذ كذَّبه النَّاس، وواسته بمالها إذ حرمه النَّاس.

وقد حبا الله هذه السَّيِّدة الوقور صباحة الوجه مع ما حباها به من الخلق الجميل، والحسب الأثيل[166] والمال الجزيل.

هذه هي أمُّ فاطمة الزَّهراء...

أمَّا أبوها فسيِّد المرسلين، وخاتم النَّبيِّين، وإمام المتَّقين...

فأعظِم بهذا النَّسب الكريم نسبًا! وهذا الأب العظيم أبًا!

كانت فاطمة الزَّهراء آخر أولاد أبويها، وآخر الأولاد يتقلَّب في أعطاف الحنان والحَدب، ويدرج في أكناف الحفاوة والحبِّ، لذا كانت فاطمة ريحانة رسول الله -صلوات الله عليه-، يرضى إذا رضيت ويسخط إذا سخطت.

ولكنَّ حنان الأبوين لم يحل دون تعهُّد المحبوبة الأثيرة بالتَّربية وإعدادها لتحمُّل المسؤوليَّات، فقد رُوي أنَّها كانت تقوم وحدها بصنيع بيتها لا يعينها في أكثر أيَّامها أحدٌ، وأنها كانت تضمِّد جراح أبيها -صلوات الله عليه- في غزوة «أحد».

ولمَّا بلغت الزَّهراء مبلغ النِّساء طمحت إليها الأنظار، فكان في جملة من خطبها أبو بكر وعمر، فردَّهما الرَّسول -صلوات الله عليه- ردًّا كريمًا، وكأنَّما كان يريد أن يخصَّ بها عليًّا -رضوان الله عليه-.

وفي السَّنة الثَّامنة للهجرة خطب عليُّ بن أبي طالبٍ فاطمة الزَّهراء، فما أسرع أن استجاب الرَّسول -ﷺ- إلى طلبه، فخرَّ عليٌّ ساجدًا شكرًا لله، فلمَّا رفع رأسه من سجوده قال له الرَّسول -عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام-: «بارك الله لكما وعليكما، وأسعد جدَّكما[167] وأخرج منكما الكثير الطيب».

وقد شهد عقد فاطمة الزَّهراء على عليِّ بن أبي طالب أبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة[168]، والزُّبير من المهاجرين، وعددٌ يماثل عددهم من الأنصار.

ولما أخذ القوم مجالسهم قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، إنَّ الله -عز وجل- جعل المصاهرة نسبًا لاحقًا، وأمرًا مفترضًا، وحكمًا عادلًا، وخيرًا جامعًا، أوشج[169] بها الأرحام وألزمها الأنام فقال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا

﴿٤٥﴾[170]. أشهدكم أنِّي زوجت فاطمة من عليٍّ على أربعمائة مثقال فضَّةٍ إن رضي بذلك على السُّنَّة القائمة، والفريضة الواجبة، فجمع الله شملهما، وبارك لهما، وأطاب نسلهما. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم».

وزُفَّت سيِّدة نساء المسلمين إلى بيت زوجها، وما كان لها من جهازٍ غير سريرٍ مشروطٍ، ووسادةٍ من أدمٍ حشوها ليفٌ، ونورةٍ[171] من أدمٍ، وسقاءٍ، ومنخلٍ، ومنشفةٍ، وقدحٍ، ورحوان وجرَّتان.

****

لم يطق الرَّسول الكريم -ﷺ- صبرًا على بعد الزَّهراء عنه، فعزم على أن يحوِّلها إلى جواره وكانت تجاوره منازل لحارثة بن النُّعمان، فجاء إلى النَّبيِّ -صلوات الله عليه- وقال: إنَّه بلغني أنَّك تريد أن تحوِّل فاطمة إليك، وهذه منازلي وهي أقرب بيوت «بني النَّجَّار» إليك، وإنما أنا ومالي لله ورسوله، والله يا رسول الله، للمالُ الذي تأخذ مني أحب إليَّ من الذي تدع.

فقال رسول الله -ﷺ-: «صدقت، بارك الله عليك».

ثمَّ حوَّل فاطمة إلى جواره وأسكنها منزلًا من بيوت حارثة -رضوان الله عليه-.

ومنذ استقرت الزَّهراء في جوار أبيها كان يلمُّ ببيتها كل صباح، فإذا أُذِّن للصُّبح كان يأخذ بعضادتي باب بيتها ويقول: «السَّلام عليكم أهل البيت ويطهِّركم تطهيرًا».

وكان النَّبي -ﷺ- إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلَّى فيه ركعتين، ثمَّ يثنِّي ببيت فاطمة ويطيل عندها المكث، ثمَّ يأتي بيوت نسائه.

ونذكرُ قصةً لفاطمة -رضي اللهُ عنها- وعلي بن أبي طالبٍ زوجُها -كرَّمَ اللهُ وجهَه- لما طلبت الابنة الطاهرة من أبيها خادمًا يُعينُها، في هذه القصة التي يقول فيها عليٌّ: إن فاطمة شكت ما تلقى في يدها من الرحى، (والرحى هو آلة الطحن التي كان يُطحن بها)، وأرته أثرًا في يدها من الرحى، واشتكت فاطمة -ا- مجل يدها، (والمجل هو التقطيع الذي يحصل في اليد من نتيجة العمل، وهو غلظ اليد الذي يحدث عند مباشرة الأعمال، فكل من عمل عملًا بكفه تجد فيه ندبًا وتقطيعًا إذا كان يمارس العمل بكفه دائمًا)، فيقول عليٌّ وهو الزوج المشفق على زوجته،

ولا شك أن النبي -عليه الصلاة والسلام- عرف من ينتقي لابنته، يقول عليٌّ: قلت لفاطمة لو أتيتِ النبي -ﷺ- فسألتِه خادمًا، فقد أجهدك الطحن والعمل.

وفي رواية: أن رسول الله -ﷺ- لما زوّجَهُ فاطمة، قال عليٌّ لفاطمة ذات يوم: والله لقد سَنَوتُ حتى اشتكيت ظهري.

فقالت: وأنا والله لقد طحنتُ حتى مجلت يداي [رواه أحمد: 838، وقال محققو المسند: «إسناده حسن»].

ومعنى: «سنوت»، يعني عملت مكان السانية، والسانية هيَ الناقة التي تسحبُ الماءَ من البئر، فيقول عليٌّ من الحاجة: عملتُ بدل السانية، عملتُ بدل الناقة في سحب المياه من الآبار بالدلاء، لأجل الناس بأجرة

«لقد سنَوتُ حتى اشتكيت صدري، فقالت فاطمة: وأنا والله لقد طحنت حتى مجلت يداي»، فهذه فاطمة -ا- «جرَّت بالرحى» وطحنَتْ بالرحى «حتى أثَّرت بيدها، واستقَتْ بالقربة حتى أثَّرَتْ في عنُقها، وقَمَّت البيتَ حتى اغبرَّت ثيابُها» كما جاء في رواية [أبي داود: 5065، وأحمد: 1312، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود: 1075].

وفي رواية: «وخبزَتْ حتى تغيَّر وجهُها»، لأن الخبّاز مع لفحِ نارِ الفرن يتغير لون وجهه، كل ذلك حصل لفاطمة -ا-، فاقترح عليها عليٌّ أن تذهبَ إلى أبيها تطلب خادمًا؛ إذ إن عليًّا لم يكن يستطيع أن يوفر لها خادمًا، وسمعوا أن النبي -ﷺ- جاءه سبيٌ، فاقترح عليها أن تطلب جارية تخدمها من أبيها، من هذا السبي الذي جاء، فقال لها: «وقد جاء اللهُ أباكِ بسبْيٍ فاذهبي إليه، فاستخدميه» [رواه أحمد: 838، وقال محققو المسند: «إسناده حسن»]، يعني اطلبي خادمًا، جارية تخدمكِ.

بلَغها أنه جاءه رقيق، فذهبت فاطمة -ا- إلى أبيها محمد -ﷺ-، فلم تجده، لم تصادفه، ووجدَتْ جماعةً يتحدثون، فاستحيَت، ورجعت.

وفي رواية: «فذكرت ذلك لعائشة» [رواه البخاري: 6318]، فلما جاء أخبرته عائشة: إنَّ ابنتك فاطمة جاءت تسأل عنك.

وفي رواية مسلم: حتى أتت منزل النبي -ﷺ- فلم توافقه، فذكرَتْ ذلك له أمُّ سلمة بعد أن رجعت فاطمة، فهذا معناه أن فاطمة -ا- ذهبت تبحث عنه في البيتين، ذهبت إلى حجرة عائشة، وذهبت إلى أمِّ سلمة تبحث عن أبيها، لتسأله خادمًا.

وجاء في رواية: أنها أتت النبي -ﷺ- فقال: ما جاء بكِ أي بنية؟ فقالت: جئتُ لأسلِّمَ عليك، واستحيت أن تسأله ورجعت. فقلت يقول عليٌّ -رضيَ اللهُ عنه-: «ما فعلت؟»، قالت: «استحييت» [رواه أحمد: 838، وقال محققو المسند: «إسناده حسن»]، فلعلَّها -رضيَ اللهُ عنها- ذهبت أولًا للبحث عن أبيها فلم تجده، ثم جاءت مرة ثانية فوجدته لكن استحت أن تطلب، ثم بعد ذلك تشجعت، فأتت النبي -ﷺ- فسألته الخادم، فقال: ألا أخبرك ما هو خير لك؟

وفي رواية: قال عليٌّ -رضيَ اللهُ عنه- لزوجته أنْ تنطلق معه، فانطلَقَت معه، فسألاه، فقال: ألا أدلُّكُما؟

وجاء في هذا الحديث أنه -ﷺ- هو الذي جاءهما وقد أخذا مضاجعهما، فدخل عليهما، فقلت: بأبي يا رسول الله، والله قد سنَوتُ حتى اشتكيتُ صدري. وقالت فاطمة: لقد طحنتُ حتى مجلت يداي، وقد جاءك الله بسبيٍ وسِعَة فاخدِمْنا (أي أعطنا خادمًا من هذا السبي). فقال -عليه الصلاة والسلام-: والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تُطوَى بطونُهم لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم وأُنفق عليهم أثمانهم [رواه أحمد: 838، وقال محققو المسند: «إسناده حسن»].

ويقصد النبيُّ -عليه الصلاة والسلام- بقوله: كيف أعطيكِ وهذا السبي الذي جاءنا نبيعه، ونأخذ ثمنه، وننفقه على أهل الصفة الفقراء الذين كانوا يأوون إلى مسجد النبي -ﷺ-؟

أهل الصفة: الذينَ ليس عندهم أهلٌ ولا مال ولا بيوت، وإنما كانوا يأتون إلى النبي -ﷺ- يلازمونه على شبع بطونهم، فقط الطعام على الطعام، فقال: كيف أعطيكِ الخادم والسبي نبيعُه وننفق ثمنه على أهل الصفة؟

جاء في رواية قالت: «فأتانا وعلينا قطيفةٌ إذا لبسناها طولًا خرجت منها جنوبنا، وإذا لبسناها عرضًا خرجت منها رؤوسنا وأقدامنا« [رواه ابن حبان في صحيحه: 6922، وقال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين»]، فدخل عليهما رسول الله -ﷺ- وقد دخلا في قطيفة لهما، إذا غطيا رؤوسها تكشفت أقدامهما، وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رؤوسهما، لما دخل عليه الصلاة والسلام قالت: «فذهبتُ أقوم» [البخاري: 6318]، أو في رواية: «فذهبنا نقوم»، فقال -ﷺ-: مكانك [البخاري: 6318] أو مكانكما [البخاري: 6318: 3113، ومسلم: 7090] أي الْزما مكانكما، لا تقوما، فجلس بيننا -ﷺ-، جلس بين علي وفاطمة -رضي الله تعالى عنهما- فقال: إني أُخبِرْتُ أنكِ جئت تطلبين، فما حاجتك؟ قالت: بلغني أنه قدم عليك خدم فأحببت أن تعطيني خادمًا يكفيني الخبز والعجن، فإنه قد شق عليَّ.

قال: فما جئت تطلبين أحب إليك أو ما هو خير منه؟

قال علي: فغمزْتُها، فقلتُ قولي ما هو خيرٌ منه أحب إليَّ؟ حتى نعرف ما هو خير من الخادم هذا، والحرص على الخير.

قال: فإذا كنتما على مثل حالكما الذي أنتما عليه، ثم ذكرَ التسبيح.

وفي رواية: أنه لما دخل عليها أدخلت رأسها في اللفاع، حياءً من أبيها، ويحمل هذا على أنها فعلت ذلك أولًا فلما تآنست به رفعت وجهها إليه وكلمته.

وفي بعض الروايات قال: ما كان حاجتك أمس؟ فسكتت مرتين.

فقلت: يقول علي: أنا والله أحدثك يا رسول الله، فذكرتُه له، فهذا يحمل على أنه سأل فاستحييتُ أولًا، فكلَّمَهُ علي، ثم لما زال الخجل تكلمت هي، وأنشَطَها للكلامِ زوجُها، فتكلمت وطلبت.

في رواية أنه -ﷺ- أتياه، فقال: ما أتى بكما؟ قال عليٌّ: شق علينا العمل، فقال: ألا أدلكما؟ وذكر الحديث.

وفي رواية قال: ما جاء بك يا بنية؟ قالت: جئت أسلم عليك واستحيت، حتى إذا كانت القابلة قال: ائت أباك، وذكر مثله، حتى إذا كانت الليلة الثالثة قال لها علي -رضيَ اللهُ عنه-: امشي. فخرجا معًا، فهذه الأحاديث وهذه الروايات تدل على أنه ربما حصل ذلك بإتيانهما ثم بإتيانه إليهما.

المهم أنه -عليه الصلاة والسلام- قال: ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم خير مما سألتماه، قالا: بلى، فقال: كلماتٍ علَّمَنِيهِنَّ جبريل.. إذا آويتما إلى فراشكما، أو أخذتما مضاجعكما من الليل تسبِّحان [رواه أحمد:

838، وقال محققو المسند: «إسناده حسن»]، فذكر لهما التسبيح ثلاثًا وثلاثين، والحمد ثلاثًا وثلاثين، والتكبير أربعًا وثلاثين، كم عددها؟ مائة.

في راوية فقال: فتلك مائة باللسان وألف في الميزان [رواه أبو داود: 5067، والترمذي: 3410، والنسائي: 1348، وابن ماجه: 926، وأحمد: 1249، وقال محققو المسند: «صحيح وهذا إسناد حسن»]، يعني الأجر عند الله الحسنة بعشر أمثالها.

وفي رواية: «فأمَرَنا عند منامنا بثلاث وثلاثين، وثلاث وثلاثين، وأربع وثلاثين، من تسبيح وتحميد وتكبير» [رواه أحمد: 996، وقال محققو المسند: «إسناده قوي»].

فإذًا، سبحان الله ثلاثًا وثلاثين قبل النوم، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين، والله أكبر أربع وثلاثين، مرة يقول ذلك.

عليٌّ -رضيَ اللهُ عنه- حافظ عليه، فلم يترك هذا الذكر أبدًا، جاء في رواية: أن عليًّا -رضيَ اللهُ عنه- قال: «فما تركتها بعد»، فقالوا له: ولا ليلة صفين، قال: ولا ليلة صفين» [رواه البخاري: 5362، وأحمد: 5362].

وقد رُوي عن محمَّد بن قيس أنَّ الرَّسول -صلوات الله عليه- خرج ذات مرة في سفرٍ ومعه عليٌّ بن أبي طالب، فصنعت له فاطمة -رضوان الله عليها- في غيبتهما سوارين وقلادةً وقرطين، ووضعت على باب البيت ستارةً، وذلك لقدوم أبيها وزوجها.

فلمَّا قدم رسول الله -ﷺ- دخل عليها ووقف أصحابه على الباب لا يدرون أيبقون أم ينصرفون لطول مكثه عندها، فخرج الرَّسول -ﷺ- وقد عرف في وجهه الغضب حتَّى جلس على المنبر.

عند ذلك أدركت فاطمة -رضوان الله عليها- أنَّه فعل ذلك لما رأى من السِّوارين والقلادة والقرطين والسِّتر، فنزعت قرُطيها وقلادتها وسواريها وأنزلت السِّتر وبعثت به إلى رسول الله -ﷺ-، وقالت لمن حمَّلته إياها:

قُل للرَّسول تقرأ عليك ابنتك السَّلام وتقول لك اجعل هذا في سبيل الله، فلمَّا أتاه قال:

«قد فعلت -فداها أبوها- ليست الدُّنيا من محمَّدٍ ولا من آل محمَّدٍ، ولكانت الدُّنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضةٍ ما سقى كافرًا منها شربة ماءٍ».

ثمَّ إنَّ بيت فاطمة الزَّهراء ما لبث أن سعد بالذُّرِّية الصَّالحة، فقد رُزق الأبوان الكريمان كلًّا من الحسن، والحسين، ومُحسن، وزينب، وأم كلثوم.

كانت فرحة الرَّسول الكريم -ﷺ- بهم كبيرةً، فقد رُوي أنه لمَّا وُلد الحسن سمَّاه والداه «حربًا» فجاء رسول الله -ﷺ-فقال: أروني ابني، ما سمَّيتموه؟

قالوا: حربًا...

قال: بل هو حَسنٌ.

وكان الرَّسول -صلوات الله عليه- يدلِّل أولاد فاطمة ويستأنسهم ويداعبهم ويرقِّصهم، وربما ركب الواحد منهم على كتفه وهو يصلِّي، فيتأنَّى في صلاته ويطيل سجوده لكي لا يزحزحه عن مركبه.

وقد كان من عادته -صلوات الله عليه- أن يبيت في بيت فاطمة حينًا بعد حينٍ، ويتولى خدمة أطفالها بنفسه وأبواهم قاعدان.

ففي إحدى اللَّيالي سمع الحسن يستسقي[172]، فقام -صلوات الله عليه- إلى قربةٍ فجعل يعصرها في القدح فمدَّ الحُسين يده ليتناول الماء، فنحَّاه عنه وبدأ بالحسن، فقالت فاطمة:

كأنَّه أحبُّ إليك؟

فقال عليه السَّلام: «إنَّما استسقى أولًا».

وكانت فاطمة -رضوان الله عليها- إذا دخلت على رسول الله -ﷺ- أخذ بيدها ورحَّب بها وأجلسها في مجلسه.

وكان إذا دخل عليها قامت له ورحَّبت به وأخذت بيده فقبَّلتها.

فدخلت عليه في مرضه الذي توفِّي فيه فأسرَّ إليها فبكت، ثمَّ أسرَّ إليها فضحكت، وكانت عائشة ترى ذلك فقالت في نفسها: كنت أحسب لهذه المرأة فضلًا على النِّساء، فإذا هي واحدةٌ منهنَّ بينما هي تبكي إذا هي تضحك.

فلمَّا توفِّي رسول الله -ﷺ- سألتها عن ذلك فقالت: أسرَّ إليَّ فأخبرني أنَّه ميِّتٌ فبكيتُ، ثمَّ أسرَّ إليَّ أنِّي أوَّل أهل بيته لحوقًا به فضحكتُ.

ولم تمكث فاطمة بعد وفاة أبيها -عليه الصَّلاة والسَّلام- طويلًا، فلحقت به بعد أشهرٍ قليلةٍ، قيل إنها ستة أو ثلاثة أو اثنان على اختلافٍ في الرِّوايات.

ففي رمضان سنة إحدى عشرة للهجرة لبَّت فاطمة الزَّهراء نداء ربِّها، وفرحت باللُّحوق بأبيها.

ولمَّا حضرتها الوفاة تولَّت أمر غسل نفسها بيدها وقالت لصاحبتها أسماء بنت عميسٍ -بعد أن اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل-: يا أمَّه ائتيني بثيابي الجدد.

فلبستها ثمَّ قالت: قد اغتسلتُ فلا يكشفنَّ لي أحدٌ كفنًا.

ثمَّ تبسمت، ولم تُر مبتسمةً بعد وفاة أبيها إلا ساعة فارقت الحياة.

رحم الله ريحانة رسول الله -ﷺ- رحمةً واسعةً فقد زُفَّت إلى عليٍّ في رمضان، وزُفَّت إلى الجنَّة في رمضان أيضًا(*).[173]

الحصافة: الحكمة في العقل، والجودة في الرأي.

الحسب الأثيل: الأصيل القديم.

أسعد جدَّكُما: أسعد حظكما، وجعلكما من المرضي عنهم.

عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله التّميمي: انظرهما في كتاب «صور من حياة الصحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة المشروعة.

أوشج بها الأرحام: وصل بها الأرحام.

سورة الفرقان: آية 54.

نورة من أدم: أي إناء من الجلد يغسل فيه.

يستسقي: يطلب السقيا.

(*) للاستزادة من أخبار فاطمة الزَّهراء انظر:

1 – سير أعلام النبلاء: 118/ 2

2 – السيرة النبوية لابن هشام: «انظر الفهارس».

3 – تاريخ الطبري: «انظر الفهارس في العاشر».

4 – حياة الصحابة: «انظر الفهارس في الرابع».

5 – الإصابة: 377/ 4 «الترجمة» 830.

6 – أعلام النساء لكحالة: 108/ 4.

7 – الطبقات لابن سعد: 25/ 8.

8 – تهذيب التهذيب: 440/ 12.

9 – الترغيب والترهيب: 262/ 3.

10 – مسند أحمد: 149/ 2.

11 – صفة الصفوة: 9/ 2.

12 – أسد الغابة: 220/ 7.

13 – حلية الأولياء: 69/ 1.

14 – الاستيعاب «بهامش الصحابة»: 373/ 4.

خولة بنت ثعلبة

«التي سمعَ اللهُ شكواها من فوق سبع سماوات»

ذات فصاحة وبلاغة وبيان..

كانت على صلة بالله..

لم تفقد إيمانها به في أحلك اللحظات! بل راحت تحتكم إلى الله ورسوله!

قصتها مع زوجها أضعها بين يدي الأزواج والزوجات حين يكون خلاف أو جدال، ومراجعة وخصام.

قالت: فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله -عز وجل- صدْرَ سورة المجادلة، قالت:

كنت عنده، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه، وضجر، فدخل عليَّ يومًا، فراجعته بشيء، فغضب، وقال: أنت عليَّ كظهر أمي، ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعةً، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدني.

قالت: فقلت كلا والذي نفسي بيده لا تَخْلُص إليَّ، وقد قلتَ ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا.

قالت: فواثَبَني، فامتنعتُ منه، فغلبتُه بما تَغلِبُ به المرأةُ الشيخَ الضعيف، فألقيتُه عني، ثمَّ خرجتُ حتى جئت رسول الله -ﷺ-، فجلستُ بين يديه، فذكرتُ له ما لقيت منه، فجعلتُ أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعلَ رسول الله -ﷺ- يقول:

«يا خُويلة، ابنُ عمك شيخ كبير فاتقي الله».

قالت: فوالله ما برِحْتُ حتى نزل القرآن، فتَغَشَّى رسولُ الله -ﷺ- ما كان يتغشاه، ثم سُرِّيَ عنه.

فقال: «يا خُويلة، قد أنزل الله فيكِ وفي صاحبكِ». ثمَّ قرأ عليَّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [سورة المجادلة].

قالت: فقال رسول الله -ﷺ-: مُريه فلْيُعتِقْ رقبة.

فقلت: والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق.

قال: فليصم شهرين متتابعين.

فقلت: والله إنهُ لشيخٌ كبيرٌ ما به من طاقة.

قال: فلْيُطعم ستين مسكينًا وَسْقًا من تمر. (الوسْقُ هو حملُ بعير 60 صاعًا).

فقلت: يا رسول الله، ما ذاك عنده.

فقال رسول الله -ﷺ-: فإنا سنعينك بعذق من تمر.

فقلت: يا رسولَ الله وأنا سأعينه بعِذق آخر.

فقال: قد أصبْتِ وأَحسنْتِ، فاذهبي فتصدقي بهِ عنه، ثم استوصي بابنِ عمَّكِ خيرًا.

قالت: ففعلت.

هذه هي خولة.. في قصتها دروسٌ لالتئام الحياة الزوجية، والإسهام في رأب الصدع، ورعاية القرابة، وكبر السن بين الأزواج والزوجات.

رُوِيَ أنَّ عمر بن الخطاب -- مَرَّ بها في زمن خلافته والناس حوله، فاستوقفته، ووعظته فقيل له: أتقِفُ لهذه العجوز هذا الموقف؟

فقال: أتدرونَ مَن هذه العجوز؟ هيَ خولة بنت ثعلبة، سمع الله قولها من فوق سبع سماوات، أيَسمعُ ربُّ العالمين قولها، ولا يسمعه عمر؟

لم تلجأ خولةُ إلى العنف، ولم تفكر في الجريمة، فإنَّ ذلك ليسَ من خُلُق الإسلام، بل راحت تلتمس الحلَّ عند الله ورسوله وتشكو أمرها إلى الله الذي خلقها، فهو القادر على أن يفك كربها، ويجعل من بعد عسرٍ يسرًا.

وإن شئت أن تسمعها وهي تعرض شكواها على رسول الله -ﷺ- فتعالَ إلى ما أخرجه ابنُ ماجة والحاكم وصححه، والبيهقي وغيرهم، عن عائشة -ا- قالت:

تبارك الذي وسع سمعُه كل شيء، إني لأسمع كلامَ خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليَّ بعضُه، وهي تشتكي إلى رسول الله -ﷺ- وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهَرَ مني، اللهمَّ إنِّي أشكو إليك.

قالت فما برَحَت حتى نزل جبريل -عليه السلام- بهؤلاء الآيات.

وقد أوصى النبي -ﷺ- بالنساء خيرًا، الذي كان المثل الأعلى في معاملة زوجاته، يقول في ذلك:

«ما استفاد المؤمنُ بعد تقوى الله خيرًا من زوجة صالحة، إنْ أمرَها أطاعتْهُ، وإنْ نظَرَ إليها سرَّتْهُ، وإنْ أقسَمَ عليها أبرَّتْهُ، وإنْ غابَ عنها حفِظَتْهُ في مالِهِ وعِرضه».

ويقولُ أيضًا -عليه الصلاة والسلام-:

«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا، وخياركُم خياركُم لنسائهم».

ويقولُ -ﷺ- في آخر خطبة له:

«استوصوا بالنساء خيرًا».

ولرسول الله -ﷺ- أحاديث شتى في الوصاية بالزوجات، والحثِّ على إحسان معاملتهن، وقد أبطلَ الإسلامُ الظِّهار.

فلله درك يا خولة... لله درك يا خولة... لله درك يا خولة.
اللهم صلِّ على سيدنا محمد، وعلى صحابته أجمعين.

زينب

بنت رسول اللّهِ -ﷺ-

هي زينب بنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم خاتم النبيين. وزينب -ا- هي كبرى بنات الرسول -ﷺ- والأولى من بين أربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة -رضي الله عنهن-، وهي ثمرة الزواج السعيد الذي جمع بين خديجة بنت خويلد -ا- ورسول الله -ﷺ-.

وُلدت زينب -ا- في السنة الثلاثين من مولد محمد -ﷺ-، أي إنه كان يبلغ من العمر ثلاثين عامًا عندما أصبح أبًا لزينب التي أحبها كثيرًا وكانت فرحته لا توصف برؤيتها. أما السيدة خديجة -ا- فقد كانت السعادة والفرحة تغمرانها عندما ترى البشر على وجه زوجها وهو يداعب ابنته الأولى.

واعتاد أهل مكة العرب عامة والأشراف منهم خاصة إرسال صغارهم الرضع بيد مرضعات من البادية يعتنين بهم وبعدما يقارب من السنتين يعيدونهم إلى ذويهم. بعد أن عادت زينب -ا- إلى حضن أمها خديجة عهدت بها إلى مربية تساعدها على رعايتها والسهر على راحة ابنتها. وترعرعت زينب في كنف والدها حتى شبت على مكارم الأخلاق والآداب والخصال فكانت تلك الفتاة البالغة الطاهرة.

كانت هالة بنت خويلد أخت خديجة -ا- تقبل على أختها بين الحين والآخر، فقد كانتا قريبتان من بعضهما، وكانت هالة تعدُّ السيدة خديجة أمًّا وأختًا لها، وكم حلمت بأن تكون زينب بنت أختها -ا- زوجة لابنها أبي العاص. من ذلك نجد أن هالة أحسنت الاختيار، فهي زينب بنت محمد -ﷺ- أحد أشراف قريش ومكانته كانت عظيمة بينهم، وأمها ذات المنزلة الرفيعة والأخلاق الكريمة أيضًا. أما زينب فلم تكن بحاجة إلى تعريف، فأخلاقها كانت من أهم ما جذب خالتها لها.

كان أبو العاص قد تعرف إلى زينب من خلال الزيارات التي كان يقوم بها لخالته -ا-، ومن هناك عرف عن طباع ابنة خالته زينب وأخلاقها فزاد من ترداده على بيت خالته. وفي أحد الأيام فاتحت هالة أختها بنيات ابنها الذي اختار زينب بنت محمد -ﷺ- ذي المكانة العظيمة في قريش لتكون شريكة حياته وزوجة له.

كان أبو العاص بن الربيع العبشمي القرشي شابًّا موفور الشباب، بهي الرونق، رائع المنظر، بسطت عليه النعمة بظلالها، وجلله الحسب بردائه، فغدا مثلًا للفروسية العربية بكل ما فيها من خصال الأنفة والكبرياء، ومآثر الاعتزاز بتراث الآباء والأجداد، وقد ورث أبو العاص حب التجارة عن قريشٍ صاحبة الرحلتين؛ رحلة الشتاء ورحلة الصيف، فكانت ركائبه لا تفتأ ذاهبةً آيبةً بين مكة والشام، وكانت قافلته تضمُّ المئة من الإبل والمئتين من الرجال، وكان الناس يدفعون إليه بأموالهم ليتجَّر لهم بما فوق ماله لما بلوا من حذقه وصدقه وأمانته، (لما بلوا أي لما عرفوا)، وكانت خالته خديجة بن خويلد زوج محمد بن عبد الله، تنزله من نفسها منزلة الولد من أمه، وتفسح له في قلبها وبيتها مكانًا مرموقًا ينزل فيه على الرحب والحُب، ولم يكن حبُّ محمد بن عبد الله لأبي العاص بأقل من حب خديجة له ولا أدنى، ومرَّت الأعوام صِراعًا خفافًا على بيت محمد بن عبد الله، فشبَّت زينب كبرى بناته وتفتحت كما تتفتح زهرةٌ فوَّاحة، فطمحت إليها نفوس أبناء السادة من أشراف مكة، وكيف لا؟ وهي من أعرق بنات قريشٍ حسبًا ونسبًا، وأكرمهن أمًّا وأبًا، وأزكاهن

خلقًا وأدبًا، ولكن أنى لهم أن يظفروا بها وقد حال دونهم ودونها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع فتى فتيان مكة؟

سُرت بهذا الخبر السيدة خديجة -ا- وهي ترى ابنتها وقد كبرت وأصبحت في سن الزواج، فأي أم لا تحلم بزواج ابنتها وبخاصة إذا كانت هي بكرها؟ أخبرت خديجة -ا- الرسول -ﷺ- بنيات ابن أختها أبي العاص ورغبته في التقدم لخطبة ابنته زينب -ا-، فما كان من رسول الله -ﷺ- إلا أن يرحب به ليكون زوجًا لابنته بعد موافقتها طبعًا، وكان ذلك لأن أبا العاص يلتقي نسبه من جهة الأب مع رسول الله -ﷺ- عند الجد الثالث عبد مناف، فهو أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وكذلك فإن نسبه يلتقي من جهة الأم مع زينب بنت محمد -ﷺ- عند جده خويلد بن أسد بن عبد العزى. بالإضافة إلى ذلك فإن أبا العاص على الرغم من صغر سنه، فقد عُرف بالخصال الكريمة والأفعال النبيلة. وعندما ذهب أبو العاص إلى رسول الله -ﷺ- ليخطب ابنته، قال عنه الرسول -ﷺ-: إنه نعم الصهر الكفء. هذا يعني أن محمدًا -ﷺ- لم يجد به عيبًا، وطلب من الخاطب الانتظار، حتى يرى رأي ابنته في ذلك، ولم يشأ الموافقة على أبي العاص قبل موافقة ابنته زينب عليه. وهذا موقف من المواقف التي دلت على حرص الرسول -ﷺ- على المشاورة ورغبته في معرفة رأي ابنته في هذا الموقف. وما كان من زينب -ا- إلا أن تسكت إعلانًا منها قبول ابن خالتها أبا العاص ليكون زوجًا لها تسهر على رعايته وراحته، وتشاركه فرحه وحزنه، وتوفر له أسباب السعادة.

ذاع خبر خِطبة أبي العاص لزينب -ا- في أرجاء مكة كلها، ففرح الناس بذلك، وأخذوا يهنئون زينب بالزوج الذي اختارته، فهو من الرجال المعدودين مالًا وتجارة في مكة، وفي الوقت نفسه يهنَّأ أبو العاص بالفتاة التي اختارها لتكون زوجة له، وأمًّا لأطفاله في المستقبل.

انتظر الجميع يوم زفاف هذين الزوجين، وعندما حان الموعد المنتظر نُحرت الذبائح وأُقيمت الولائم، وكانت فرحة كليهما لا توصَف.

عاشت زينب حياة سعيدة في كنف زوجها، وكانت خير الزوجة الصالحة الكريمة لأبي العاص، وكان هو خير الزوج الفاضل الذي أحاطها بالحب والأمان. وشاء الله -تعالى- أن يكون ثمرة هذا الزواج السعيد طفلان أنجبتهما زينب -ا-. الأول علي بن أبي العاص الذي توفي صبيًّا، وكان رسول الله -ﷺ- قد أردفه وراءه يوم الفتح، والثانية أمامة بنت أبي العاص التي تزوجها علي بن أبي طالب -كرَّم الله وجهه- بعد وفاة فاطمة الزهراء -ا-.

كان أبو العاص يعمل بالتجارة فيضطر في بعض الأحيان إلى السفر إلى بلاد الشام تاركًا زوجته عند أمه هالة بنت خويلد. ومن شدة حب أبي العاص لزوجته كان يقول فيها في سفره وبعيدًا عنها:

ذكرت زينب لما وركت أرما فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما

بنت الأمين جزاها الله صالحا وكل بعل سيثني بالذي علما

نزول الوحي على محمد -ﷺ- وإسلام زينب -ا-:

عندما نقول إنه ليس من الغريب أن يكون محمد -ﷺ- نبي الأمة، فإننا نعني ذلك لعدة أسباب، فالرسول -ﷺ- كان يتمتع بأنبل الصفات وأحسن الأخلاق، فقد عُرف بصدقه وأمانته ومساعدته للضعيف والفقير، وبتلك المحاسن التي اشتُهر بها كان هو الرجل الأعظم والأكمل بين سادات قريش في مكة.

وتبدأ قصة نزول الوحي عندما بدأ الرسول -ﷺ- ينشغل في التأمل في خلق الله وهو في غار حراء. وكان يقضي أوقاتًا طويلة في تأمله وتدبره، وفي الجانب الآخر كانت زوجته السيدة خديجة -ا- تسأل عنه دائمًا وترسل من يأتي بأخباره إليها، وكانت هي أكثر من يهيء له الراحة والسعادة. وبعد نزول الوحي على رسول الله -ﷺ-، أسرعت خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تروي له كل ما حصل مع زوجها في غار حراء، فبشرها بأنه سيكون نبي الأمة المنتظر، ولكن وفي الوقت نفسه فإنه سيتعرض للتعذيب والاضطهاد من قريش.

سُرت خديجة ببشارة النبي وحزنت بعد معرفتها بأن قريشًا لن تتبع زوجها بالدين الذي سيدعو له، وعلى الرغم من ذلك كانت السيدة خديجة -ا- أول من آمن بما جاء به الرسول -ﷺ- وأول من اتبعه.

وفي يوم نزول الوحي على سيدنا محمد -ﷺ- كان أبو العاص في سفر تجارة، فخرجت السيدة زينب -ا- إلى بيت والدها تطمئن على أحوالهم، فإذا بها ترى أمها خديجة في حال غريب بعد عودتها من عند ورقة بن نوفل. سألت زينب أمها عن سبب هذا الانشغال فلم تجبها، إلى أن اجتمعت خديجة -ا- ببناتها الأربعة؛ «زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة» -رضوان الله عليهن-، وأخبرتهن بنزول الوحي على والدهم -ﷺ- وبالرسالة التي يحملها للناس كافة. لم يكن غريبًا أن تؤمن البنات الأربعة برسالة محمد -ﷺ- فهو أبوهن والصادق الأمين قبل كل شيء، فأسلمْنَ دون تردد وشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وقررت الوقوف إلى جانبه ومساندته، وهذا أقل ما يمكن فعله.

أسلم عدد قليل من رجال مكة من أمثال أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان والزبير بن العوام -رضي الله عنهم-، وهم من الذين أيدوه وتقاسموا معه ظلم قريش وبطشهم. وعاد أبو العاص من سفره، وكان قد سمع من المشركين بأمر الدين الجديد الذي يدعو إليه محمد -ﷺ-.

دخل على زوجته فأخبرها بكل ما سمعه، وأخذ يردد أقوال المشركين في الرسول -ﷺ- ودينه، في تلك اللحظة وقفت السيدة زينب -ا- موقف الصمود وأخبرت زوجها بأنها أسلمت وآمنت بكل ما جاء به محمد -ﷺ- ودعته إلى الإسلام، فلم ينطق بشيء وخرج من بيته تاركًا السيدة زينب بذهولها لموقفه غير المتوقَّع. وعندما عاد أبو العاص إلى بيته وجد زوجته -ا- جالسة بانتظاره، فإذا به يخبرها بأن والدها محمد -ﷺ- دعاه إلى الإسلام وترك عبادة الأصنام ودين أجداده، فرحت زينب ظنًّا منها أن زوجها قد أسلم،

لكنه لم يكمل ولم يبشرها بإسلامه كما ظنت، فعاد الحزن ليغطي ملامح وجهها الطاهر من جديد. على الرغم من عدم إسلام أبي العاص ألا أنه أحب محمدًا -ﷺ- حبًّا شديدًا، ولم يشك في صدقه لحظة واحدة، وكان مما قال لزوجته السيدة زينب -ا- في أحد الأيام عندما دعته إلى الإسلام:

«والله ما أبوك عندي بمتهم، وليس أحب إليَّ من أن أسلك معك يا حبيبة في شعب واحد، ولكني أكره لك أن يقال إن زوجك خذل قومه وكفر بآبائه إرضاء لامرأته».

من هذه المواقف نجد أن السيدة زينب -ا- على الرغم من عدم إسلام زوجها فقد بقيت معه تدعوه إلى الإسلام، وتقنعه بأن ما جاء به الرسول -ﷺ- هو من عند الله وليس هناك أحق من هذا الدين لاعتناقه. ومن ذلك نجد أيضًا أن أبا العاص لم يجبر زوجته على تكذيب والدها -ﷺ- أو الرجوع إلى دين آبائه وعبادة الأصنام، وحتى وإن أجبرها فلم تكن هي لتكذِّب أباها إرضاءً لزوجها، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وعلى الرغم من أنَّ أبا العاص كان يصفيها بصافي الحب ويمحضُها من محض الوداد، ولما اشتد النزاع بين النبي -عليه الصلاة والسلام- وبين قريش، فقال بعضهم لبعض:

ويحكم إنكم قد حملتم عن محمدٍ همومه بتزويج فتيانكم من بناته، فلو ردتموهُنَّ إليه لانشغل بهنَّ عنكم.

فقالوا: نعم الرأي ما رأيتم.

ومشوا إلى أبي العاص وقالوا له: فارق صاحبتك يا أبا العاص، وردَّها إلى بيت أبيها، ونحن نزوجك أي امرأةٍ تشاء من كرائم عقيلات قريش.

فقال: لا والله إني لا أفارق صاحبتي وما أحب أن لي بها نساء الدنيا جميعًا.

أما ابنتا النبي -ﷺ-، رقية وأم كلثوم، فقد طُلِّقتا وحُملتا إلى بيته، فسُرَّ النبي -عليه الصلاة والسلام- بردهما إليه، ولم يكن قد شُرِعَ بعد تحريم زواج المؤمنة بالمشرك.

مرَّت الأيام، وجاءَ عام الحزن الذي شهد فيه الرسول -ﷺ- ومعه بناته -رضي الله عنهن- وفاة كلٍّ من السيدة خديجة -ا-، وعم الرسول -ﷺ- أبي طالب، زاد بطش وتعذيب كفار قريش للرسول -ﷺ-. كان محمد -ﷺ- يجد في السيدة خديجة ملجأً لبث همومه، وكان يشكو إليها عذاب رجال قريش، ويرى في عمه أبي طالب رجلًا معينًا وناصرًا على قومه على الرغم من عدم إسلامه. لذلك كانت وفاة هذين الشخصين العزيزين مأساة للرسول -ﷺ-، فحزن لذلك حزنًا كبيرًا وحزنت معه زينب ومعها أخواتها الثلاثة -رضي الله عنهن-، وقد وجَّهْنَ كل حنانهنَّ وحبهنَّ لأبيهن -ﷺ- للتخفيف عنه.

كانت السيدة زينب -ا- تسمع في كل يوم عن مطاردة قريش للرسول -ﷺ- وتعذيبه، ومعه أصحابه بشتى أنواع العذاب، وهي ترى صبر والدها، وما كان منها إلا أن تدعو له بالنصر على أعدائه ونشر دعوة الإسلام في كل مكان. حتى كان اليوم الذي وصل فيه خبر هجرة محمد -ﷺ- ومعه الصديق أبو بكر --

إلى يثرب، ومطاردة رجال قريش لهما، لقتلهما والقضاء على خاتم الرسل والإسلام. وكانت زينب تمضي الليالي مضطربة النفس خائفة القلب على الرسول -ﷺ-، ولم ترتح إلا بعد أن وصل خبر وصوله وصاحبه إلى يثرب آمنين سالمين. وبعد هجرة رسول الله -ﷺ- إلى المدينة المنورة أمر بإحضار ابنتيه فاطمة وأم كلثوم -□- إلى دار الهجرة يثرب، أما رقية -ا- فقد هاجرت مع زوجها من قبل، ولم يبق سوى زينب التي كانت في مأمن من بطش المشركين وتعذيبهم وهي في بيت زوجها الذي آمنها على دينها.

وبعد أن استولى المسلمون على قافلة كانت قادمة من بلاد الشام حاملة بضائع لأهل مكة وقُتل عمرو بن الحضرمي وأُخذ رجال القافلة كأسرى، اشتد غضب رجال قريش، وبخاصة بعد أن وصلهم أن رسول الله -ﷺ- ينوي التعرض لقافلة أبي سفيان. وحشد رجال قريش وأشرافها الجيوش وجروا العتاد والأسلحة لمواجهة محمد -ﷺ- ومعه أصحابه للقضاء عليهم في يثرب. في تلك الأثناء وصلت قافلة أبي سفيان سالمة إلى مكة. ومن أشد الأمور غرابة، أن أبا العاص زوج السيدة زينب -ا- كان قد تحالف مع المشركين مُكرَهًا، إذ لم تكن به رغبةٌ في قتال المسلمين، ولا أربٌ في النيل منهم، ولكن منزلته في قومه حملته على مسايرتهم حملًا، وكانت زينب -ا- تدعو الله -سبحانه وتعالى- أن ينصر والدها على أعداء الله وأن يحفظ زوجها من كل سوء على الرغم من عصيانه لله. وبدأ القتال وواجه المشركون بعددهم الكبير رسول الله -ﷺ- ومعه القلة المؤمنة، ولكن الله -تعالى- نصر رسوله والمؤمنين نصرًا كبيرًا وهزم أعداء الإسلام على الرغم من عدم التوافق العددي بين الجيشين.

وصل خبر انتصار المسلمين إلى مكة وكانت فرحة زينب بهذا الانتصار لا توصَف، ولكن خوفها على زوجها لم يُكمِل تلك السعادة التي غمرتها، حتى علمت بأن زوجها لم يُقتل، وأنه وقع أسيرًا في أيدي المسلمين. وكان رسول الله -ﷺ- قد رأى أبا العاص زوج ابنته ضمن الأسرى، واستبقاه عنده بعد أن أمر الصحابة أن يستوصوا بالأسرى خيرًا.

لما وقعت عينه على صهره، قال -عليه الصلاة والسلام-: «والله ما ذممناه صهرًا».

هو مشرك وجاء ليحاربه ولكن النبي ما نسي أنه كان زوجًا طيبًا، قال: والله ما ذممناه صهرًا. وفرض النبي -عليه الصلاة والسلام- على الأسرى فديةً يفتدون بها أنفسهم من الأسر، وجعلها تتراوح بين ألف درهم وأربعة آلافٍ، بحسب منزلة الأسير في قومه وغناه، وطفقت الرسل تروح وتغدوا بين مكة والمدينة، حاملةً من الأموال ما تفتدي بها أسراها، فبعثت زينب رسولها إلى المدينة يحمل فدية زوجها أبي العاص، وجعلت فيها قلادةً كانت أهدتها لها أمها خديجة بنت خويلد يوم زفتها إليه، فلما رأى النبي -عليه الصلاة والسلام- القلادة (قلادة زوجته السيدة خديجة) غشيت وجهه الكريم غلالةٌ شفافةٌ من الحزن العميق، ورقَّ لابنته أشد الرقاء، ثم التفت إلى أصحابه وقال: «إن زينب بعثت بهذا المال لفداء أبي العاص، فإن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا لها مالها فافعلوا»، فقالوا: نعم ونعمة عينٍ يا رسول الله، الأسير صهره، والتي تفتدي أسيرها ابنته، ومبلغ الفدية هي قلادةٌ كانت للسيدة خديجة.

روي عن عائشة -رضي اللهُ عنها-: أن أبا العاص شهد بدرًا مشركًا، فأسره عبد الله بن جبير الأنصاري، فلما بلغت أهل مكة في فداء أسراهم، جاء في فداء أبي العاص أخوه عمرو، وبعثت معه زينب بقلادة لها من جزع ظفار (أدخلتها بها خديجة على زوجها) في فداء زوجها، فلما رأى رسول الله -ﷺ- القلادة عرفها، ورق لها وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فعلتم؟»، قالوا: نعم. فأخذ عليه العهد أن يخلي سبيلها إليه، ففعل.

بعد أن افتدت السيدة زينب -ا- زوجها الأسير عند رسول الله -ﷺ- طلب الرسول من أبي العاص أن يخلي سبيل زوجته إليه ويجعلها تلحق بأبيها إلى دار الهجرة المدينة، فرضي أبو العاص على ذلك. وكانت السيدة زينب -ا- ومعها طفلاها تتجهز للحاق بأبيها في دار الإسلام بعد أن أرسل الرسول -ﷺ- زيد بن حارثة -رضي الله عنه- ومعه صحابي آخر إلى بطن يأجج على بعد ثمانية أميال من مكة، ليصطحبا السيدة زينب معهما إلى يثرب. وعندما عاد أبو العاص إلى مكة أمر زوجته باللحاق بأبيها في المدينة وأمر أخاه عمر بن الربيع بمرافقة زوجته. تنكَّب عمرو بن الربيع قوسه وحمل كنانته (جعبة سهامه)، وجعل زينب في هودجها، وخرج بها من مكة جهارًا نهارًا على مرأى من قريشٍ، يريد أن يوصلها إلى حيث زيد بن حارثة رسول رسول اللهِ إلى مكة كي يأخذ ابنته زينب.

خرجت السيدة زينب من مكة وهي تودعها، آملة أن يخرج زوجها أبو العاص معها عائدًا إلى يثرب مسلمًا مؤمنًا بالله مصدقًا لرسوله، على الرغم من كل ما رأته من وقوف زوجها ضد الرسول -ﷺ- بدلًا من الوقوف إلى جانبه ومساندته، فقد تمنت له الخير دائمًا، وهذه هي صفات السيدة زينب بنت نبي الأمة محمد -ﷺ-، متسامحة محبة وداعية للخير دائمًا. وعندما علم رجال قريش بخبر خروج السيدة زينب إلى أبيها هاج القوم وماجوا، ولحقوا بهما حتى أدركوهما غير بعيدٍ وروَّعوا زينب وأفزعوها، وكان أول من لحق بها هبار بن الأسود ومعه رجل آخر من قريش، فعندما لقيها روعها برمحه فإذا هي تسقط من فوق بعيرها على صخرة جعلتها تسقِط جنينها، عند ذلك وتَرَ عمر قوسه، (أي هيأه)، ونثر كنانته بين يديه، وقال: والله لا يدنو رجلٌ منها إلا وضعت سهمًا في نحره. وكان راميًا لا يخطئ له سهم، فأقبل عليه أبو سفيان بن حرب، وكان قد لحق بالقوم وقال له: يا بن أخي، كف عنا نبلك حتى نكلِّمك. فكفَّ عنهم فقال له: إنك لم تصب فيما صنعت، فلقد خرجت بزينب علانيةً على رؤوس الناس، وعيوننا ترى، وقد عرفت العرب جميعها أمر نكبتنا في بدر، وما أصابنا على يد أبيها محمد، فإذا خرجت بابنته علانيةً كما فعلت رمتنا القبائل بالجبن، ووصفتنا بالهوان والذل، فارجع بها واستبقها في بيت زوجها أيامًا حتى إذا تحدَّث الناس بأننا رددناها، فسلَّها من بين أنظرنا سرًّا، وألحقها بأبيها، فما لنا بحبسها عنه حاجة.

فرضي عمرو بذلك وأعاد زينب إلى مكة، كان أبو سفيان حكيمًا، رجع عمر بن الربيع إلى مكة ومعه زينب حتى ترتاح من الألم والمرض الذي ألم بها، ثم ما لبث أن أخرجها منها ليلًا بعد أيامٍ معدودات، وسلَّمها لزيد

بن حارثة ورجل آخر كان النبي -عليه الصلاة والسلام- قد أرسلهما بعد غزوة بدر بشهر لاصطحابها إلى المدينة. سلَّمها لهم يدًا بيد كما أوصاه أخوه.

وصلت زينبُ إلى يثرب، حيث استقبلها أبوها استقبالًا حارًّا سعيدًا برؤيتها مجددًا مع طفليها علي وأمامة. وأخبرت السيدة زينب -ا- رسول الله -ﷺ- بما فعله هبار وصاحبه، فاشتد غضب الرسول -ﷺ-، ثم أرسل رسول الله -ﷺ- بسرية لمعاقبة هبار وصاحبه، وأمرهم بإحراقهم إن ظفروا بهما، ثم أرسل إليهم في اليوم التالي أن اقتلوهما، فإنه لا ينبغي لأحد أن يعذِّب بعذاب الله تعالى.

وأقامت السيدة زينب -ا- مع طفليها في كنف والدها -ﷺ- حتى العام السابع من الهجرة.

قبل فتح مكة وبينما كان أبو العاص عائدًا في قافلة من رحلة تجارة من بلاد الشام إلى مكة حاملًا معه أموال قريش التي اؤتمن عليها، تعرض لقافلته سرية بقيادة زيد بن حارثة -رضي الله عنه- ومعه مائة وسبعين رجلًا. تمكنت هذه السرية المبعوثة من رسول الله -ﷺ- من الحصول على كل ما تحمله تلك السرية من مال، وهرب عدد من رجال القافلة وكان أبو العاص واحدًا منهم. وخشي أبو العاص على أموال قريش التي كان قد اؤتمن عليها، فلم يجد إلا أن يتوجه إلى يثرب ليلًا ليستجير بالسيدة زينب -ا- أن يعيد رسول الله -ﷺ- مال قريش الذي استولوا عليه من القافلة، فأجارته في طلب ذلك المال.

لما خرج رسول الله -ﷺ- إلى الصبح واستوى قائمًا في المحراب فكبر وكبر الناس معه، صرخت زينب من صفة النساء: أيها الناس، أنا زينب بنت محمد، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

فلما سلم رسول الله -ﷺ- من الصلاة أقبل على الناس فقال: «أيها الناس هل سمعتم ما سمعت»؟ قالوا نعم. قال: «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء كان حتى سمعت منه ما سمعتم، وإنه يجير على المسلمين أدناهم». ثم انصرف رسول الله -ﷺ- فدخل على ابنته فقال: «أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له ما دام مشركًا».

اجتمع رسول الله -ﷺ- مع أصحابه بأبي العاص، فاستشار صحابته أن يردوا على أبي العاص أمواله التي أخذوها من القافلة وقال لهم: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالًا، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فأنا أحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيءُ الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به». اتفق الصحابة جميعًا على إعادة المال لأبي العاص كاملًا دون نقصان.

فلما جاء لأخذه قالوا: يا أبا العاص، إنك في شرفٍ من قريش، وأنت ابن عم رسول الله وصهره، فهل لك أن تسلم ونحن نُنْزِل لك عن هذا المال كلِّه فتنعُم بما معك من أموال أهل مكة وتبقى معنا في المدينة؟ يعني المال أصبح غنيمة، هو حينما أسلم أصبحت أمواله التي معه غنيمةً للمسلمين.

فقال أبو العاص: بئس ما دعوتموني أن أبدأ ديني الجديد بغدرةٍ.

هذا من نبله ومن مروءته!

ومضى أبو العاص بالعير وما عليها إلى مكة، فلما بلغها أدَّى لكل ذي حقٍّ حقه ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مالٌ لم يأخذه؟

قالوا: لا، وجزاك الله عنا خيرًا فقد وجدناك وفيًّا كريمًا.

قال: أما وأني قد وفَّيت لكم حقوقكم، فأنا أشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والله ما منعني من الإسلام إلا أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم فرغت منهم وأسلمت.

جمع أبو العاص أغراضه وعاد إلى يثرب قاصدًا مسجد الرسول -ﷺ- فإذا بالرسول -ﷺ- وأصحابه يفرحون بعودته، ليكمل فرحتهم تلك بالإسلام. وبعد إسلام أبي العاص أعاد الرسول -ﷺ- زينب إليه بنكاحه الأول، وقيل إنه أعيد إليها بنكاح جديد وعاشا من جديد معًا والإسلام يجمعهما.

بعد عام من الْتِئام شمل الزوجين؛ أبي العاص والسيدة زينب -ا-، وبعد أن عاشا حياة كريمة سعيدة في دار الإسلام مع ولديهما أمامة وعلي، بدأ المرض يزداد على السيدة زينب -ا-، وظلت زينب ملازمة الفراش فترة طويلة من أثر ما تعرضت له من قِبل هبار بن الأسود، وهي في طريقها إلى يثرب للهجرة. ولم تستطع الأدوية أن تخفف من مرض زينب، فسلمت أمرها لله -سبحانه وتعالى-.

في العام الثامن للهجرة تُوفيت السيدة زينب -ا-، وحزن رسول الله -ﷺ- حزنًا عظيمًا، وحزن معه زوجها أبو العاص الذي وافته المنية بعد 4 سنوات من وفاة زينب.

ولما ماتت زينب بنت الرسول -ﷺ- قال: «اغسلنها وترًا، ثلاثًا أو خمسًا، واجعلن في الآخرة كافورًا أو شيئًا من كافور، فإذا غسلتنها، فأعلمنني». فلما غسلناها أعطانا حِقْوَهُ، فقال: «أشعرنها إياه».

بعد وفاة زينب -ا- مول رسول الله -ﷺ- في قبرها، وهو مهموم ومحزون، فلما خرج سُرِّيَ عنه وقال: «كنت أذكر زينب وضعفها، فسألت الله -تعالى- أن يخفف عنها ضيق القبر وغمه، ففعل وهون عليها».

وقال عبد الله بن عباس: لَمَّا ماتت زينب بنت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلَّم- وقف (يعني رسول الله) على شفير القبر وفاطمة تبكي، فجعل يأخذ ثوبه فيمسح عينيها، فبكين النساء، فضرَبَهُنَّ عمر بسوطه، فقال: «يا عمر، دعْهُنَّ فإنَّ العين دامعة والنفس مصابة، ابكين وإيَّاكن وبقيعة الشيطان، فإنَّه ما يكن من القلب والعين فمن الله، وما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان».

رضيَ اللهُ عن زينب وصلى اللهُ على أبيها محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

مارية القبطية -I-

هدية المقوقس

بعد أن تم صلح الحديبية بين الرسول -ﷺ- وبين المشركين في مكة، بدأ الرسول في الدعوة إلى الإسلام، كتب الرسول -ﷺ- كتبًا إلى ملوك العالم يدعوهم فيها إلى الإسلام، واهتم بذلك اهتمامًا كبيرًا، فاختار من أصحابه من لهم معرفة وخبرة، وأرسلهم إلى الملوك، ومن بين هؤلاء الملوك هرقل ملك الروم، وكسرى أبرويز ملك فارس، والمقوقس ملك مصر، والنجاشي ملك الحبشة.

تلقى هؤلاء الملوك الرسائل وردوا ردًّا جميلًا، ما عدا كسرى ملك فارس، الذي مزق الكتاب.

لما أرسل الرسول كتابًا إلى المقوقس حاكم الإسكندرية والنائب العام للدولة البيزنطية في مصر، أرسله مع حاطب بن أبي بلتعة، وكان معروفًا بحكمته وبلاغته وفصاحته، فأخذ حاطب كتاب الرسول -ﷺ- إلى مصر، وبعد أن دخل على المقوقس الذي رحب به، وأخذ يستمع إلى كلمات حاطب، ثمَّ قال له المقوقس: يا هذا، إنَّ لنا دينًا لن ندعه إلا لما هو خير منه.

فقال حاطب: إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه واعتبِر بغيرك ولا يُعتبر بك.

عند ذلكَ قال المقوقس: هات.

فقال حاطب: إن هذا النبي -ﷺ- دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له يهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى بن مريم إلا كبشارة عيسى بمحمد -ﷺ- وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوارة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قومًا فهم من أمته فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبي ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به.

فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى إلا عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكاذب، وجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبيء والإخبار بالنجوى وسأنظر.

وكان فحوى كتاب النبيّ -ﷺ-:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد..

فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتِك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط.

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾. [سورة آل عمران، آية: 64].

وهذه القصة يرويها حاطبٌ -رضي اللهُ عنه- فيقول:

بعثني رسول الله -ﷺ- إلى المقوقس ملك الإسكندرية، فجئته بكتاب رسول الله -ﷺ-، فأنزلني في منزله، وأقمت عنده، ثم بعث إليَّ وقد جمع بطارقته، وقال: إني سائلك عن كلام فأحب أن تفهم عني.

قلت: هلمَّ.

قال: أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبي؟

قلت: بلى، هو رسول الله.

قال: فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟

فقلت: عيسى بن مريم، أليس تشهد أنه رسول الله؟

قال: بلى.

قلت: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه، إلا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا؟

فقال لي: أنت حكيم قد جاء من عند حكيم، هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد، وأرسل معك ببذرقة يبذرقونك إلى مأمنك.

أخذ المقوقس كتاب النبي -ﷺ- وختم عليه، وكتب إلى النبي -ﷺ- كتابًا جاءَ فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد..

فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا بقي، وكنت أظن أنه سيخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك».

فأهدى إلى رسول الله -ﷺ- ثلاث جوارٍ منهم: أم إبراهيم ابن رسول الله -ﷺ-، وواحدة وهبها رسول الله -ﷺ- لأبي جهم بن حذيفة العدوي، وواحدة وهبها رسول الله -ﷺ- لحسان بن ثابت الأنصاري، وأرسل إليه بطرفٍ من طرفهم.

وذكر ابن إسحاق أنه أهدى إلى رسول الله -ﷺ- أربع جوارٍ؛ إحداهن مارية أم إبراهيم، والأخرى سيرين التي وهبها لحسان بن ثابت، فولدت له عبد الرحمن بن حسان، وكان في جملة الهدية غلام أسود اسمه مأبور، وخفان سوداوان، وبغلة بيضاء اسمها الدلدل.

وفي طريق عودة حاطب إلى المدينة، عرض حاطب على الجواري الإسلام ورغَّبهم فيه، فأكرمهم الله بالإسلام.

ومن هنا.. قدمت مارية إلى المدينة المنورة بعد صلح الحديبية في سنة سبع من الهجرة. وذكر المفسرون أن اسمها مارية بنت شمعون القبطية.

وفي المدينة.. اختار الرسول -ﷺ- مارية لنفسه، ووهب أختها سيرين لشاعره الكبير حسان بن ثابت الأنصاري -رضي الله عنه-.

كانت مارية -ا- جميلة الطلعة، وقد أثار قدومها الغيرة في نفس عائشة -ا-، فكانت تراقب مظاهر اهتمام رسول الله -ﷺ- بها. وقالت عائشة -ا-:

«ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية، وذلك أنها كانت جميلة جعدة -أو دعجة- فأعجب بها رسول الله -ﷺ- وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت لحارثة بن النعمان، فكانت جارتنا، فكان عامة الليل والنهار عندها، حتى فرغنا لها، فجزعت فحولها إلى العالية، وكان يختلف إليها هناك، فكان ذلك أشد علينا».

وبعد مرور عام على قدوم مارية إلى المدينة، حملت مارية، وفرح النبي لسماع هذا الخبر، فكان قد قارب الستين من عمره وفقد أولاده ما عدا فاطمة الزهراء -رضوان الله عليها-.

ولدت مارية في «شهر ذي الحجة من السنة الثامنة للهجرة النبوية الشريفة»، طفلًا جميلًا يشبه الرسول -ﷺ-، وقد سماه إبراهيم تيمنًا بأبيه إبراهيم خليل الرحمن -عليه السلام، وبهذه الولادة أصبحت مارية حرة.

وعاش إبراهيم ابن الرسول -ﷺ- سنة وبضعة أشهر يحظى برعاية رسول الله -ﷺ- ولكنه مرض قبل أن يكمل عامه الثاني، وذات يوم اشتد مرضه، ومات إبراهيم وهو ابن ثمانية عشر شهرًا، وكانت وفاته يوم الثلاثاء لعشر ليالٍ خلت من ربيع الأول سنة عشرة من الهجرة النبوية المباركة، وحزنت مارية حزنًا شديدًا على موت إبراهيم.

ولمارية -ا- شأن كبير في الآيات المباركة وفي أحداث السيرة النبوية. أنزل الله -عز وجل- صدر سورة التحريم بسبب مارية القبطية، وقد أوردها العلماء والفقهاء والمحدثون والمفسرون في أحاديثهم وتصانيفهم. وقيل بل في حفصة وعائشة -□-، وقد توفي الرسول
-ﷺ- وهو راضٍ عنها، فهي التي تشرفت بالبيت النبوي الطاهر، وعُدَّت من أهله، وكانت مارية شديدة الحرص على اكتساب مرضاة الرسول -ﷺ-، كما عُرفت بدينها وورعها وعبادتها.

عاشت مارية ما يقارب خمس سنوات في ظلال الخلافة الراشدة، وتوفيت في السنة السادسة عشرة من محرم، فدعا عمر الناس وجمعهم للصلاة عليها، فاجتمع عدد كبير من الصحابة من المهاجرين والأنصار ليشهدوا الصلاة على مارية القبطية، وصلى عليها سيدنا عمر -- في البقيع، ودُفنت إلى جانب نساء أهل البيت النبوي، وإلى جانب ابنها إبراهيم.

جويرية بنت الحارث -ا-

امرأةٌ أعتقَتْ قومَها كلَّهم!

«ما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها».

عائشة -ا-

سيرة عطرة يود الكثير من أهل الخير لو كانوا طرفًا منها. وليست هناك أصدق وأبهى وأنضر من سيرة سيدة من سيدات وأمهات المؤمنين. نقف على سيرتها لتكون لنا فيها عبرة وموعظة. ولنأخذ قطوفًا دانية مباركة من سيرة أم المؤمنين جويرية التي خصها الله -عز وجل- بالطهارة، وما أجمل سيرتها العطرة! ا وأرضاها.

هي برة بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن عائذ بن مالك من خزاعة، كان أبوها سيد وزعيم بني المصطلق. عاشت برة في بيت والدها معززة مكرمة في ترف وعز وفي بيت تسوده العراقة والأصالة، وفي حداثة سنها تزوجت برة بمسافع بن صفوان أحد فتيان خزاعة وكانت لم تتجاوز العشرين من عمرها.

بدأ الشيطان يتسلل إلى قلوب بني المصطلق ويزين لهم بأنهم أقوياء يستطيعون التغلب على المسلمين، فأخذوا يعدون العدة ويتأهبون لمقاتلة المجتمع المسلم بقيادة الرسول -ﷺ- فتجمعوا لقتال رسول الله -ﷺ-، وكان بقيادتهم سيدهم الحارث بن أبي ضرار، وقد كانت نتيجة القتال انتصار النبي -ﷺ- وهزيمة بني المصطلق في عقر دارهم. فما كان من النبي إلا أن سبى كثيرًا من الرجال والنساء، وكان مسافع بن صفوان زوج جويرية من الذين قتلتهم السيوف المسلمة، وقد كانت السيدة جويرية بنت الحارث من النساء اللاتي وقعن في السبي، فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري -رضي الله عنه-، عندها اتفقت معه على مبلغ من المال تدفعه له مقابل عتقها، لأنها كانت تتوق للحرية.

شاءت الأقدار أن تذهب السيدة جويرية إلى رسول الله -ﷺ- فرأتها السيدة عائشة أم المؤمنين فقالت تصفها: كانت حلوة ملاحة. وقالت: فوالله ما رأيتها على باب حجرتي إلا كرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت. جاءت جويرية رسول الله وقالت: «أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من الأمر ما قد علمت، فوقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبني على نفسه تسع أوراق فأعنِّي على فكاكي».

ولأن بني المصطلق كانوا من أعز العرب دارًا وأكرمهم حسبًا، ولحكمة النبي -ﷺ- قال لجويرية: «فهل لك في خير من ذلك؟».

قالت: «وما هو يا رسول الله؟».

قال: «أقضي عنك كتابتك وأتزوجك».

وكانت قبل قليل تتحرق طلبًا لاستنشاق عبير الحرية، ولكنها وجدت الأعظم من ذلك، ففرحت جويرية فرحًا شديدًا وتألق وجهها لما سمعته من رسول الله -ﷺ-، ولما ستلاقيه من أمان من بعد الضياع والهوان، فأجابته دون تردد أو تلعثم: «نعم يا رسول الله». فتزوجها النبي -ﷺ- وأصدقها 400 درهم.

وفي هذا تقول أمُّنا جويرية بنت الحارث:

«رأيتُ قبل قدوم النبي -ﷺ- بثلاث ليالٍ كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع في حجري، فكرهت أن أخبر به أحدًا من الناس، حتى قدم رسول الله -ﷺ-، فلما سبينا رجوت الرؤيا.

فأعتقني رسول الله -ﷺ- وتزوجني، والله ما كلمته في قومي حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم، وما شعرت إلا بجارية من بنات عمي تخبرني الخبر، فحمدت الله تعالى».

قال أبو عمر القرطبي في الاستيعاب: كان اسمها برة فغير رسول -ﷺ- اسمها وسماها جويرية. فأصبحت جويرية بعدها أمًّا للمؤمنين وزوجة لسيد الأولين والآخرين -ﷺ-.

وخرج الخبر إلى مسامع المسلمين فأرسلوا ما في أيديهم من السبي وقالوا متعاظمين: هم أصهار رسول الله -ﷺ-. فكانت بركة جويرية من أعظم البركات على قومها. قالت عنها السيدة عائشة -ا-: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة من أهل بيت بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة منها.

كانت السيدة جويرية من أجمل النساء، كما أنها تتصف بالعقل الحصيف، والرأي السديد الموفق الرصين، والخلق الكريم، والفصاحة، ومواقع الكلام، كما كانت تعرف بصفاء قلبها ونقاء سريرتها، وزيادة على ذلك فقد كانت واعية، تقية، نقية، ورعة، فقيهة، مشرقة الروح، مضيئة القلب والعقل، ذاكرةٌ، قانتة.

راحت السيدة جويرية تحذو حذو أمهات المؤمنين في الصلاة والعبادة وتقتبس من الرسول -ﷺ- ومن أخلاقه وصفاته الحميدة حتى أصبحت مثلاً في الفضل والفضيلة. فكانت أم المؤمنين جويرية من العابدات القانتات السابحات الصابرات، وكانت مواظبة على تحميد العلي القدير وتسبيحه وذكره.

وكانت فقيهةً راويةً للحديث.. حدث عنها ابن عباس، وعبيد بن السباق، وكريب مولى ابن عباس ومجاهد وأبو أيوب يحيى بن مالك الأزدي وجابر بن عبد الله. بلغ مسندها في كتاب بَقِيّ بن مخلد سبعة أحاديث، منها أربعة في الكتب الست، عند البخاري حديث وعند مسلم حديثان. وقد تضمنت مروياتها أحاديث في الصوم، في عدم تخصيص يوم الجمعة بالصوم، وحديث في الدعوات في ثواب التسبيح، وفي الزكاة في إباحة الهدية للنبي -ﷺ- وإن كان المُهدِيُّ ملَكَها بطريق الصدقة، كما روت في العتق.

وهكذا وبسبعة أحاديث شريفة خَلَّدَت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث -ا- اسمها في عالم الرواية، لتضيف إلى شرف صحبتها للنبي -ﷺ- وأمومتها للمسلمين، تبليغها الأمة سنن المصطفى -ﷺ-، ما تيسر لها ذلك.

ومن الأحاديث التي أخرجها الإمام البخاري -رحمه الله- عن قتادة عن أيوب عن جويرية بنت الحارث -ا- أن النبي -ﷺ- دخل عليها يوم الجمعة، وهي صائمة فقال: «أصمتِ أمس؟» قالت: لا. قال: «تريدين أن تصومي غدًا؟» قالت: لا. قال: «فأفطري».

وهذا يدل على كراهية تخصيص يوم الجمعة بالصوم والنهي عن صيامه.

عاشت السيدة جويرية بعد رسول الله راضية مرضية، وامتدت حياتها إلى خلافة سيدنا معاوية بن أبي سفيان -□-. وتُوفيت أم المؤمنين في شهر ربيع الأول من السنة الخمسين للهجرة النبوية الشريفة، وشُيع جثمانها في البقيع وصلى عليها مروان بن الحكم.

أمُّ المؤمنين

«حفصة بنت عمر بن الخطاب» - ﷺ -

هي حفصة بنت عمر أمير المؤمنين بن الخطاب -□-، وُلدت قبل المبعث بخمسة أعوام. لقد كانت حفصة زوجة صالحة للصحابي الجليل خنيس بن حذافة السهمي الذي كان من أصحاب الهجرتين، هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين إليها فرارًا بدينه، ثم إلى المدينة نصرة لنبيه -ﷺ-، وقد شهد بدرًا أولًا ثم شهد أحدًا، فأصابته جراحه توفي على أثرها، وترك من ورائه زوجته حفصة بنت عمر.. شابة في ريعان العمر، فترمَّلَت ولها عشرون سنة.

تألم عمر بن الخطاب لابنته الشابة، وأوجعه أن يرى ملامح الترمل تغتال شبابها وأصبح يشعر بانقباض في نفسه كلما رأى ابنته الشابة تعاني عزلة الترمل، وهي التي كانت في حياة زوجها تنعم بالسعادة الزوجية، فأخذ يفكر بعد انقضاء عدتها في أمرها، من سيكون زوجًا لابنته؟

ومرت الأيام متتابعة، وما من خاطبٍ لها، وهو غير عالم بأن النبي -ﷺ- قد أخذت من اهتمامه، فأسرَّ إلى أبي بكر الصديق أنه يريد خطبتها. ولما تطاولت الأيام عليه وابنته الشابة الأيم يؤلمها الترمل، عرضها على أبي بكر، فلم يُجبه بشيء، ثم عرضها على عثمان، فقال عثمانُ -رضيَ اللهُ عنه-: «بدا لي اليوم ألا أتزوج».

فوجد عليهما وانكسر، وشكا حاله إلى النبي -ﷺ-، فقال: يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، يتزوج عثمان من هو خير من حفصة؟!

وعمر لا يدري معنى قول النبي -ﷺ- لِما به من هموم لابنته، ثم خطبها النبي -ﷺ-، فزوجه عمر -ـ ابنته حفصة، وينال شرف مصاهرة النبي -ﷺ-، ويرى نفسه أنه قارب المنزلة التي بلغها أبو بكر من مصاهرته من ابنته عائشة، وهذا هو المقصود -والله أعلم- من تفكير النبي -ﷺ- بخطبة حفصة بنت عمر -ا-.

وزوج رسول الله -ﷺ- عثمان بابنته أم كلثوم بعد وفاة أختها رقية، ولما أن تزوج رسول الله -ﷺ- حفصة، لقيَ عمر بن الخطاب أبا بكر، فاعتذر أبو بكر إليه، وقال: لا تجد عليَّ، فإنّ رسول الله -ﷺ-، كان ذكر حفصة، فلم أكن لأُفشي سره، ولو ترَكَها لتزوجتها.

وبذلك تحققت فرحة عمر وابنته حفصة، وبارك الصحابة يد رسول -ﷺ- وهي تمتد لتكرم عمر بن الخطاب بشرف المصاهرة منه -عليه الصلاة والسلام-، وتمسح عن حفصة آلام الترمل والفرقة. وكان زواجه -ﷺ- بحفصة سنة ثلاثة من الهجرة على صداق قدره 400 درهم.

وقد حظيت حفصة بنت عمر الخطاب -ا- بالشرف الرفيع الذي حظِيَتْ به سابقتها عائشة بنت أبي بكر الصديق، وتبوأت المنزلة الكريمة من بين أمهات المؤمنين -رضي الله عنهن-.

وتدخل حفصة بيت النبي -ﷺ- ثالثة الزوجات في بيوته -عليه الصلاة والسلام-، فقد جاءت بعد سودة وعائشة.

أما سودة.. فرحبت بها راضية، وأما عائشة فحارت ماذا تصنع مع هذه الزوجة الشابة، وهي من هي، ابنة الفاروق عمر، الذي أعز الله به الإسلام قديمًا، ومُلِئت قلوب المشركين منه ذعرًا.

وسكتت عائشة أمام هذا الزواج المفاجئ وهي التي كانت تضيق بيوم ضرتها سودة، التي ما اكترثت لها كثيرًا، فكيف يكون الحال معها حين تقتطع حفصة من أيامها مع الرسول -ﷺ- ثلثها؟!

وتتضاءل غيرة عائشة من حفصة لما رأت توافد زوجات أخريات على بيوتات النبي -ﷺ-.. «زينب، وأم سلمة، وزينب الأخرى، وجويرية بنت الحارث، وصفية» إنه لم يسعها إلا أن تصافيها الود، وتُسَرُّ حفصةُ لودِّ ضرتها عائشة وينعمها ذلك الصفاء النادر بين الضرائر.

وكانت أم المؤمنين حفصة صوامةً قوامة، وهذه شهادة صادقة من أمين الوحي جبريل -عليه السلام-، وبشارة محققة: إنها زوجتك -يا رسول الله- في الجنة!

وقد وعت حفصة مواعظ الله حق الوعي، وتأدبت بآداب كتابه الكريم حق التأدب، وقد عكفت على المصحف تلاوة وتدبرًا وتفهمًا وتأملًا، مما أثار انتباه أبيها الفاروق عمر بن الخطاب إلى عظيم اهتمامها بكتاب الله -تبارك وتعالى-، مما جعله يوصي بالمصحف الشريف الذي كُتِبَ في عهد أبي بكر الصديق بعد وفاة النبي -ﷺ-، إلى ابنته (حفصة) أم المؤمنين.

روى أبو نعيم عن ابن شهاب عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال: لما أمرني أبو بكر فجمعت القرآن كتبته في قطع الأُدُم وكسر الأكتاف والعسب، فلما توفي أبو بكر -- كان عمر كتب ذلك في صحيفة واحدة فكانت عنده (أي على رق من نوع واحد)، فلما توفي عمر -- كانت الصحيفة عند حفصة زوجة النبي -ﷺ-، ثم أرسل عثمان -- إلى حفصة -ا-، فسألها أن تعطيه الصحيفة، وحلف ليردنَّها إليها، فأعطته، فعرض المصحف عليها، فردها إليها، وطابت نفسه، وأمر الناس فكتبوا المصاحف.

وقد امتاز هذا المصحف الشريف بخصائص الجمع الثاني للقرآن الكريم الذي تم إنجازه في خلافة أبي بكر الصديق --، بمشورة من عمر بن الخطاب، وذلك بعدما استحَرَّ القتل في القراء عند محاربة مسيلمة الكذاب، حيث قُتل في معركة اليمامة سبعون من القراء الحفظة للقرآن بأسره، وخصائص جمع هذا المصحف نجملها فيما يلي:

أولًا: أنَّ كل من كان قد تلقى عن رسول الله -ﷺ- شيئًا من القرآن أتى وأدلى به إلى زيد بن ثابت.

ثانيًا: أنَّ كل من كتب شيئًا في حضرة النبي -ﷺ- من القرآن الكريم أتى به إلى زيد.

ثالثًا: أنَّ زيدًا كان لا يأخذ إلا من أصلٍ قد كُتِبَ بين يدي النبي -ﷺ-.

رابعًا: أنَّ الجمع بعد المقارنة بين المحفوظ في الصدور، والمرسوم في السطور، والمقابلة بينهما، لا بمجرد الاعتماد على أحدهما.

خامسًا: أنّ زيدًا كان لا يقبل من أحدٍ شيئًا حتى يشهد معه شاهدان على سماعه وتلقيه عن رسول الله -ﷺ- مباشرة بلا واسطة، فيكون بذلك هذا الجمع قد تم فيه التدوين الجماعي، والثلاثة أقلُّ الجمع.

سادسًا: أنَّ ترتيب هذا المصحف الشريف (الأول من نوعه) وضبطه كان على حسب العرضة الأخيرة على رسول الله -ﷺ- قبل التحاقه بالرفيق الأعلى حينَ عرضهُ عليهِ جبريل -عليه السلام- مرتين.

وقد شارك زيد في هذه المهمة العظيمة عمر بن الخطاب، فعن عروة بن الزبير أن أبا بكر قال لعمر وزيد: «اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه».

قال الحافظ السخاوي في (جمال القراء): «المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كُتب بين يدي النبي -ﷺ-، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن».

ولما أجمع الصحابة على أمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان في جمع الناس على مصحف إمام يستنسخون منه مصاحفهم، أرسل أمير المؤمنين عثمان إلى أم المؤمنين حفصة -ا- أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف.

تلك هي الوديعة الغالية التي أودعها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عند ابنته حفصة أم المؤمنين، فحفظتها بكل أمانة، ورعتها بكل صون، فحفظ لها الصحابة والتابعون وتابعوهم من المؤمنين إلى يومنا هذا وحتى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. حفظوا لها ذلك الذكر الجميل الذي تُذكر فيه، كلَّما تذاكر المسلمون جمع المصحف الشريف في مرحلتيه؛ في عهد الصديق أبي بكر وعهد ذي النورين عثمان -رضي اللهُ عنهم جميعًا-.

وبعد مقتل عثمان.. إلى آخر أيام علي، بقيت حفصة عاكفة على العبادة صوامة قوامة، إلى أن توفيت في أول عهد معاوية بن أبي سفيان، وشيَّعها أهل المدينة إلى مثواها الأخير في البقيع مع أمهات المؤمنين -رضي الله عنهن-.

أم أيمن

بركة بنت ثعلبة

حاضنة الرسول -ﷺ-

بركة بنت ثعلبة بن عمر بن حصن بن مالك بن عمر النعمان وهي أم أيمن الحبشية، مولاة رسول الله -ﷺ- وحاضنته. ورثها من أبيه ثم أعتقها عندما تزوج بخديجة أم المؤمنين -ا-. وكانت من المهاجرات الأُوَل -ا-. وقد رُوي بإسناد ضعيف: أنَّ النبي -ﷺ- كان يقول لأم أيمن: «يا أمّ» ويقول: «هذه بقية أهل بيتي». وهذا إن دل فإنما يدل على مكانة أم أيمن عند رسول الله وحبه الشديد لها، وحيث عدَّها من أهل بيته.

قال فضل بن مرزوق، عن سفيان بن عقبة، قال: كانت أم أيمن تلاطف النبي -ﷺ-، وقد تزوجها عبيد بن الحارث الخزرجي، فولدت له: أيمن. ولأيمن هجرة وجهاد، استشهد زوجها عبيد الخزرجي يوم حنين، ثم تزوجها زيد بن حارثة أيام بعث النبي -ﷺ- فولدت له أسامة بن زيد، الذي سُمِّيَ بحِبِّ رسول الله -ﷺ-. وكان الرسول -ﷺ- قد قال في أم أيمن: «من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة، فليتزوج أم أيمن»، فتزوجها زيد بن حارثة وحظي بها.

وعن أنس: أنَّ أم أيمن بكت حين مات النبي -ﷺ-. فقيل لها: أتبكين؟ قالت: «والله لقد علمت أنه سيموت، ولكني إنما أبكي على الوحي إذ انقطع عنا من السماء».

وهذا القول يدل على حبها الشديد وتعلقها بالنبي -ﷺ- والوحي.

أم أيمن ورثها الرسول -ﷺ- من أبيه، وقام الرسول -ﷺ- بعتق أم أيمن عندما تزوج خديجة بنت خويلد، وقد تزوج عبيد بن زيد من بني الحارث بن الخزرج أم أيمن، فولدت ولدًا وأسمته أيمن، ولكنه استُشهد في يوم حنين، وكان مولى خديجة بنت خويلد «زيد بن الحارث بن شراحيل الكلبي» الذي وهبته خديجة لرسول الله -ﷺ- الذي أعتقهُ النبي -ﷺ- وتزوج أم أيمن.

وأذكر هنا شيئًا مما رواه ابن سعد عن عثمان بن القاسم أنه قال: لما هاجرت أم أيمن، أمست بالبصرة، ودون الروحاء، فعطِشَت وليسَ معها ماء وهي صائمة، فأجهدها العطش، فدُلِّيَ عليها من السماء دلوٌ من ماء برشاء أبيض، فأخذته، فشربته حتى رويت. فكانت تقول: ما أصابني بعد ذلك عطش، ولقد تعَرَّضْتُ للعطش بالصوم في الهواجر، فما عطِشْتُ.

وهذا يدل على كرم الله على أم أيمن، ومنزلتها العالية وفوزها بمحبة الله والرسول، وهذا كله رفقُ الله بعباده، وسِعَةُ رحمةِ الخالق.

إذ حظيت أم أيمن بمنزلة عالية عند الرسول -ﷺ-، فأكرمها أعز مكرمة لها في الدنيا عندما قال رسول الله -ﷺ- فيها: «أمُّ أيمن أمي، بعد أمي».

وللنبي -ﷺ- وقفة كريمة بعد انصرافه من غزوة الطائف منتصرًا غانمًا، ومعه من هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء، وما لا يُعلَم عدده من الإبل والشياه، نتلمَّس من خلالها عظيم إجلاله واحترامه وتوقيره لمقام الأمومة التي كان يرعى حقها حق الرعاية، وذلك حين أتاه وفد هوازن ممن أسلموا فقال قائلهم: يا رسول الله، إنما في الحظائر وخالاتك وحواضنك.

وكانت حليمة أم النبي -ﷺ- من الرضاعة، من بني سعد بن بكر من هوازن، فمن رضاعه -ﷺ- من حليمة السعدية أصبح له في هوازن تلك القرابات، فلمست ضراعتهم قلبه الكبير، واستجاب سريعًا لهذه الشفاعة بالأم الكريمة حليمة السعدية التي أرضعته.

كذلك هذا الموقف يدل على تعظيم الرسول -ﷺ- للأمومة، وحسن معاملته للناس واحترامه الكبير لهم، إذ قال لوفد هوازن والوفاءُ لأمه الكريمة يملأ نفسه: «أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم. وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنَّا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله، في أبنائنا ونسائنا. فسأعطيكم عند ذلك وأسال لكم».

فلما صلى رسول الله -ﷺ- بالناس الظهر، قام رجال هوازن فتكلموا بالذي أمرهم به -ﷺ-، فقال رسول الله -ﷺ-: «أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»، فقال المهاجرون: «وما كان لنا فهو لرسول الله -ﷺ-». وقالت الأنصار: «وما كان لنا فهو لرسول الله -ﷺ-».

وهذا يدل على روح التعاون والحب الشديد لرسول الله ويبيِّن مدى تأثُّرهم به وتعلقهم به.

روت أمُّنا الطاهرة أمُّ أيمن عن النبي -ﷺ-، وروى عنها أنس بن مالك، والصنعاني، والمدني [تهذيب التهذيب ج 12 ص 459].

لقد اختار الله -تعالى- لنبيه محمد -ﷺ- أمهات طاهرات كريمات، ذوات أصل عريق وأنساب شريفة، كان لكل واحدة منهن دور في رعايته -ﷺ- والعناية به إلى أن أصبح شابًّا سويًّا، فمن أمهات النبي -ﷺ- آمنة بنت وهب: وهي الأم الكبرى له -ﷺ-، وأما حليمة السعدية: فهي الأم الثانية التي كان لها شرف إرضاعه -ﷺ- وتغذيته بلبنها ورعايته في طفولته. وكذلك ثُويبة، مولاة أبي لهب، وهي أمُّ النبي -ﷺ- بالرضاعة أيضًا، أرضعته حين أعانت آمنة به. وكانت خديجة تُكرمها وهي على ملك أبي لهب، وسألته أن يبيعها لها فامتنع، فلما هاجر رسول الله أعتقها أبو لهب. وكان رسول الله -ﷺ- يبعث إليها بِصِلةٍ وكسوة، حتى جاءه الخبر أنها ماتت سنة سبعة للهجرة.

كانت حاضنة رسول الله -ﷺ-، ورثها رسول الله -ﷺ- من أمه، ثم أعتقها، وبقيت ملازمة له طيلة حياتها، وكانت كثيرًا ما تدخل السرور على قلبه -ﷺ- بملاطفتها إياه.

وقد هاجرت بمفردها من مكة إلى المدينة سيرًا على الأقدام، وليس معها زاد، وشاركت في غزوة أحد، وكانت تسقي الماء، وتداوي الجرحى، وكانت تحثو التراب في وجوه الذين فروا من المعركة، وتقول لبعضهم: هاكَ المِغزل وهات سيفك.

وشهدت مع رسول الله -ﷺ- غزوتي خيبر وحنين.

واختُلِفَ في تاريخ وفاتها، فقيل: توفيت بعد وفاة رسول الله -ﷺ- بخمسة أو بستة أشهر، وقيل: توفيت بعد وفاة عمر بن الخطاب بعشرين يومًا، ودُفنت في المدينة المنورة.

أمُّ المؤمنين

صفية بنت حيي -ا-

هي صفية بنت حيي بن أخطب، التي يتصل نسبها بهارون النبي -عليه السلام-.

تقول: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، ولم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذاني دونه. فلما قدم رسول الله المدينة، غدا عليه أبي وعمي مُغلسين (أي في الغلَس من الليل)، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، فأتيا كالَّيْنِ ساقطين يمشيان الهوينا، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفتَ إليَّ أحدٌ منهما مع ما بهما من الغم. وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي: أهوَ هوَ؟ قال أبي: نعم والله. فقال عمي: أتعرفه وتثبته؟ فقال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ أجاب أبي: عداوَتُهُ والله ما بقيت.

نشأت في الخزرج، وكانت في الجاهلية من ذوات الشرف، ودانت باليهودية وكانت من أهل المدينة. وأمها تُدعى برة بنت سموأل.

عُرف عن صفية أنها ذات شخصية فاضلة، جميلة حليمة، ذات شرف رفيع، وكانت لها مكانة عزيزة عند أهلها، ذُكر بأنها تزوجت مرتين قبل اعتناقها الإسلام. أول أزواجها يدعى سَلام بن مشكم، كان فارس القوم وشاعرهم. ثم فارقته وتزوجت بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النصري صاحب حصن القموص، أعز حصنٍ عند اليهود. وقُتِلَ عنها يوم خيبر.

وفي السنة السابعة من شهر محرم، استعد رسول الله -عليه الصلاة والسلام- لمحاربة اليهود. فعندما أشرف عليها قال: «الله أكبر، خَرُبَت خيبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

واندلع القتال بين المسلمين واليهود، فقُتِلَ رجال خيبر، وسُبِيَت نساؤها ومن بينهم صفية، وفُتحت حصونها. ومن هذه الحصون كان حصن ابن أبي الحقيق. عندما عاد بلال بالأسرى مر بهم ببعض من قتلاهم، فصرخت ابنة عم صفية، وحثت بالتراب على وجهها، فتضايق رسول الله من فعلتها وأمر بإبعادها عنه. وقال لصفية بأن تقف خلفه، وغطى عليها بثوبه حتى لا ترى القتلى. فقيل إن الرسول اصطفاها لنفسه.

وذُكر أن دحية بن خليفة جاء رسول الله يطلب جارية من سبب خيبر، فاختار صفية، فقيل لرسول الله -عليه الصلاة والسلام- إنها سيدة قريظة وما تصلح إلا لك. فقال له النبي خذ جارية غيرها.

وكعادة رسول الله لا يجبر أحدًا على اعتناق الإسلام إلا أن يكون مقتنعًا بما أنزل الله من كتاب وسنة. فسألها الرسول -ﷺ- عن ذلك، وخيَّرها بين البقاء على دين اليهودية أو اعتناق الإسلام. فإن اختارت اليهودية أعتقها، وإن أسلمت سيمسكها لنفسه. وكان اختيارها الإسلام الذي جاء عن رغبة صادقة في التوبة وحبًّا لهدي محمدٍ -ﷺ-.

عند قدومها من خيبر أقامت في منزلٍ لحارثة بن النعمان، وقدمت النساء لرؤيتها لما سمعوا عن جمالها، وكانت من بين النساء عائشة -ا- ذُكر بأنها كانت منقبة. وبعد خروجها سألها رسول الله عن صفية، فردت عائشة: رأيت يهودية، قال رسول الله: «لقد أسلمت وحسن إسلامها».

وفي خيبر رفضَت صفيَّة الزواج بالنبي، فأكمل النبي طريقهُ، حتى قامت أم سليم بنت ملحان بتمشيط صفية وتزينها وتعطيرها، حتى ظهرت عروسًا تلفت الأنظار. كانت تغمرها الفرحة، حتى إنها نسيت ما ألمَّ بأهلها. وأُقيمت لها وليمة العرس، أما مهرها فكان خادمة تدعى رزينة. وعندما دخل الرسول -عليه الصلاة والسلام- على صفية، أخبرته بأنها في ليلة زفافها بكنانة رأت في منامها قمرًا يقع في حجرها، فأخبرت زوجها بذلك، فقال غاضبًا: لكأنك تَمَنَّينَ ملك الحجاز محمدًا. ولطمها على وجهها.

ثم سألها الرسول -عليه الصلاة والسلام- عن سبب رفضها للعرس عندما كانا في خيبر، فأخبرته أنها خافت عليه قرب اليهود.

بلغ صفية أن حفصة وعائشة قالا بأنها بنت يهودي. فتضايقت من قولهنَّ وأخبرت رسول الله، فقال لها: «قولي لهما إنك لابنةُ نبيٍّ وعمكِ لنبيٌّ وإنكِ لتحتَ نبيٍّ، ففيم تفخر عليكِ» وحج النبي بنسائه، وفي الطريق برك جملها فبكت، فمسح الرسول -عليه الصلاة والسلام- دموعها وهي تزداد دموعًا وينهاها، فلما جاء وقت الرواح، قال رسول الله لزينب بنت جحش: «يا زينب، اقفزي أختك جملًا». وكانت من أكثرهن ظهرًا قالت: «أنا أقفز يهوديَّتك؟!»، فغضب النبي ولم يكلِّمها حتى رجع المدينة. وفي شهر ربيع الأول دخل عليها، فقالت: هذا ظلُّ رجلٍ وما يدخل عليَّ رسول الله! فدخل النبي فلما رأته قالت: يا رسول، ما أصنع؟ قالت: وكانت لها جارية تخبِّئها من النبي فقالت فلانة لك، قال: فمشى النبي إلى سرير صفية ورضيَ عن أهله.

وفي أحد الأيام ذهبت صفية إلى رسول الله تتحدث معه، وكان معتكفًا في مسجده، فخرج ليوصلها إلى بيتها، فلقيا رجلين من الأنصار، فعندما رأيا رسول الله رجعا فقال: «تعاليا فإنها صفية» فقالا نعوذ بالله، سبحان الله يا رسول الله. فقال: «إنَّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم».

وعند وفاة النبي -ﷺ- اجتمعت زوجاتُه عنده، فقالت صفية أتمنى أن يحلَّ بي ما ألمَّ بك. فغمزتها زوجات النبي، فرد عليهنَّ وقال: «والله إنها لصادقة».

وفي عهد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، جاءته جارية لصفية تخبره بأن صفية تحبُّ السبت وتصل اليهود، فلما استخبر صفية عن ذلك، فأجابت قائلة: «فأما السبت لم أحبه بعد أن أبدلني الله به بيوم الجمعة، وأما اليهود فإني أصِلُ رحمي». وسألت الجارية عن سبب فعلتها فقالت: الشيطان. فأعتقتها صفية.

لها في كتب الحديث عشرة أحاديث، أُخرج منها في الصحيحين حديث واحد متفق عليه، روى عنها ابن أخيها، ومولاها كنانة، ويزيد بن معتب، وزين العابدين بن علي بن الحسين، وإسحاق بن عبد الله بن الحارث، ومسلم بن صفوان.

وتُوفيت في المدينة، في عهد الخلفية معاوية، سنة 50 للهجرة، ودُفِنَت بالبقيع مع أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن جميعًا.

ميمونة بنت الحارث -ا-

آخر أمهات المؤمنين

هي ميمونة بنت الحارث بن حزن بن جبير بن الهزم بن روبية بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية. فأما أمها كانت تُدعى هند بنت عوف بن زهير بن الحرث، وأخواتها: أم الفضل «لبابة الكبرى» زوج العباس -□-، و«لبابة الصغرى» زوج الوليد بن المغيرة المخزومي وأم خالد بن الوليد، وعصماء بني الحارث زوج أُبي بن الخلف، وغرة بنت الحرث زوج زياد بن عبد الله بن مالك الهلالي، وهؤلاء هن أخواتها من أمها وأبيها.

أما أخواتها لأمها فهنَّ: أسماء بنت عميس زوج جعفر --، ثم مات فخلف عليها أبو بكر الصديق --، ثم مات فخلف عليها علي -كرم الله وجهه-، وسلمى بنت عميس زوج حمزة بن عبد المطلب --، ثم مات فخلف عليها شداد بن أسامة بن الهاد، وسلامة بنت عميس زوج عبد الله بن كعب بن عنبة الخثعمي.

ولهذا عُرفت أمها هند بنت عوف بأكرم عجوز في الأرض أصهارًا، فأصهارها: أشرف الخلق رسول الله -ﷺ-، وصاحبه الصديق، وعَمَّاهُ حمزة والعباس ابنا عبد المطلب، وجعفر وعلي أبناء عمه أبي طالب، وشداد بن الهاد -رضي الله عنهم أجمعين-، وتلك فضائل حِسان، فهل فوق ذلك من أسمى وأفخر من هذا النسب الأصيل والمقام الرفيع؟!

كان زواجها -I- أولًا بمسعود بن عمرو الثقفي قبيل الإسلام، ففارقها وتزوجها أبو رهم بن عبد العزى. فتوفي عنها وهي في ريعان الشباب. ثم ملأ نور الإيمان قلبها، وأضاء جوانب نفسها حتى شهد الله -تعالى- لها بالإيمان، وكيف لا وهي كانت من السابقين في سجل الإيمان. فحظيت بشرف الزواج برسول الله -ﷺ- بعد انتهائه من عمرة القضاء.

دخل رسول الله -ﷺ- وأصحابه مكة معتمرين، وطاف الحبيب المصطفى بالبيت العتيق بيت الله الحرام، وكانت ميمونة بمكة أيضًا ورأت رسول الله وهو يعتمر، فملأت ناظريها به حتى استحوذت عليها فكرة أن تنال شرف الزواج برسول الله -ﷺ- وأن تصبح أمًّا للمؤمنين، وما الذي يمنعها من تحقيق حلم لطالما راودتها في اليقظة والمنام وهي التي كانت من السابقين في سجل الإيمان وقائمة المؤمنين؟

وفي تلك اللحظات التي خالجت نفسها همسات قلبها المفعم بالإيمان، أفضت ميمونة بأمنيتها إلى أختها أم الفضل، وحدثتها عن حبها وأمنيتها في أن تكون زوجًا لرسول الله -ﷺ- وأمًّا للمؤمنين، وأما أم الفضل فلم تكتم الأمر عن زوجها العباس فأفضت إليه بأمنية أختها ميمونة، ويبدو أن العباس أيضًا لم يكتم الأمر عن ابن أخيه، فأفضى إليه بأمنية ميمونة بنت الحارث. فبعث رسول الله ابن عمه جعفر بن أبي طالب ليخطبها له، وما إن خرج جعفر -- من عندها، حتى ركبت بعيرها وانطلقت إلى رسول الله -ﷺ-، وما إن وقعت عيناها عليه -ﷺ- حتى قالت: «البعير وما عليه لله ورسوله».

وهكذا وهبَتْ ميمونة نفسها للنبي -ﷺ- وفيها نزل قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ

خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٠﴾ [سورة الأحزاب، آية: 50].

لقد جعلت ميمونة أمرها إلى العباس بن عبد المطلب فزوَّجها لرسول الله -ﷺ-، وقيل أيضًا إن العباس قال لرسول الله -ﷺ-: «إن ميمونة بنت الحارث قد تأيمت من أبي رهم بن عبد العزى، هل لك أن تتزوجها؟»، فتزوجها رسول الله -ﷺ-.

أقام رسول الله -ﷺ- وأصحابه بمكة ثلاثة أيام، فلما أصبح اليوم الرابع، أتى إليه -ﷺ- نفر من كفار قريش ومعهم حويطب بن عبد العزى (الذي أسلم فيما بعد) فأمروا الرسول -ﷺ- أن يخرج بعد أن انقضى الأجل وأتم عمرة القضاء والتي كانت عن عمرة الحديبية. فقال -ﷺ-: «وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، فصنعتُ لكم طعامًا فحضرتموه». فقالوا: «لا حاجة لنا بطعامك، فاخرج عنا». فخرج رسول الله -ﷺ- وخلف مولاه أن يحمل ميمونة إليه حين يمسي.

فلحقت به ميمونة إلى سرف، وفي ذلك الموضع بنى الرسول -ﷺ- في هذه البقعة المباركة، ويومئذ سماها الرسول -ﷺ- ميمونة بعد أن كان اسمها برة. فعقد عليها بسرف بعد تحلله من عمرته لما رُوي عنها: «تزوجني رسول الله -ﷺ- ونحن حلالان بسرف».

ودخلت ميمونة -ا- البيت النبوي وهي لم تتجاوز بعد السادسة والعشرين. وإنه لشرف لا يضاهيه شرف لميمونة، فقد أحست بالغبطة تغمرها والفرحة تعمها، عندما أضحت في عداد أمهات المؤمنين الطاهرات -رضي الله عنهن جميعًا-. وعند وصولها إلى المدينة استقبلتها نسوة دار الهجرة بالترحيب والتهاني والتبريكات، وأكرمنها خير إكرام، إكرامًا للرسول -ﷺ- وطلبًا لمرضاة الله -عز وجل-.

ودخلت أم المؤمنين الحجرة التي أعد لها الرسول الكريم -ﷺ- لتكون بيتًا لها أسوة بباقي أمهات المؤمنين ونساء رسول الله -ﷺ-. وهكذا بقيت ميمونة تحظى بالقرب من رسول الله -ﷺ- وتتفقه بكتاب الله وتستمع الأحاديث النبوية من الرسول الكريم -ﷺ-، وتهتدي بما يقوله، فكانت تكثر من الصلاة في المسجد النبوي لأنها سمعت النبي -ﷺ- يقول: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام».

وظلت ميمونة في البيت النبوي وظلت مكانتها رفيعة عند رسول الله حتى إذا اشتد به المرض -عليه الصلاة والسلام- نزل في بيتها، ثم استأذنتها عائشة بإذن النبي -ﷺ- لينتقل إلى بيتها ليمرض حيث أحب في بيت عائشة.

وبعد انتقال الرسول -ﷺ- إلى الرفيق الأعلى، عاشت ميمونة -ا- حياتها بعد النبي -ﷺ- في نشر سنة النبي -ﷺ- بين الصحابة والتابعين، لأنها كانت ممن وعين الحديث الشريف وتلقينه عن رسول الله -ﷺ-،

ولأنها شديدة التمسك بالهدي النبوي والخصال المحمدية، ومنها حفظ الحديث النبوي الشريف وروايته ونقله إلى كبار الصحابة والتابعين وأئمة العلماء. وكانت أم المؤمنين ميمونة -ا- من المكثرات لرواية الحديث النبوي الشريف والحافظات له، إذ إنها روت عن رسول الله -ﷺ- ستة وسبعين حديثًا.

وعكفت أم المؤمنين على العبادة والصلاة في البيت النبوي وراحت تهتدي بهدي رسول الله -ﷺ- وتقتبس من أخلاقه الحسنة، وكانت حريصة أشد الحرص على تطبيق حدود الله، ولا يثنيها عن ذلك شيء من رحمة أو شفقة أو صلة قرابة.

ويُحكى أن ذا قرابة لميمونة دخل عليها، فوجدت منه ريح شراب، فقالت: «لئن لم تخرج إلى المسلمين، فيجلدونك، لا تدخل علي أبدًا».

وهذا الموقف خير دليل على تمسك ميمونة -ا- بأوامر الله -عز وجل- وتطبيق السنة المطهرة، فلا يمكن أن تحابي قرابتها في تعطيل حد من حدود الله.

وقد زكى الرسول -ﷺ- إيمان ميمونة -ا- وشهد لها ولأخواتها بالإيمان لما رُوي عن ابن عباس -~ قال: قال رسول الله -ﷺ-: «الأخوات المؤمنات: ميمونة زوج النبي -ﷺ-، وأم الفضل، وسلمى امرأة حمزة، وأسماء بنت عميس أختهن لأمهن». رضي الله عنهم جميعًا.

وكانت لأم المؤمنين ميمونة -ا- شهرة شهد لها التاريخ بعظمتها، ومن أسباب شهرتها نذكر:

إن أم ميمونة هند بنت عوف كانت تُعرف بأنها أكرم عجوز في الأرض أصهارًا -كما ذكرت سابقًا- فأصهارها: أشرف الخلق رسول الله -ﷺ-، وصاحبه الصدِّيق، وعمَّاه حمزة والعباس ابنا عبد المطلب، وجعفر وعلي أبناء عمه أبي طالب، وشداد بن الهاد -رضي الله عنهم أجمعين-.

ومن أسباب عظمتها كذلك شهادة الرسول -ﷺ- لها ولأخواتها بالإيمان.

ومنه تكريم الله -عز وجل- لها عندما نزل القرآن يحكي قصتها وكيف أنها وهبت نفسها لرسول الله -ﷺ-، في قول الله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ [سورة الأحزاب، آية: 50].

ومن ذلك أنها كانت آخر من تزوجها رسول الله -ﷺ-، وبها ختمت أمهات المؤمنين، وكانت نعم الختام.

وقد كانت تقية تصل الرحم لشهادة أم المؤمنين عائشة -ا- لها عندما قالت: «إنها والله كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم».

ومما يُذكر لميمونة -ا- أنها كانت أم المؤمنين ميمونة -ا- من الحافظات المكثرات لرواية الحديث النبوي الشريف، ولم يسبقها في ذلك سوى أم المؤمنين السيدة عائشة -ا-، وأم سلمة أم المؤمنين -ا-.

وكانت أم المؤمنين ميمونة -ا- قد عاشت الخلافة الراشدة وهي عزيزة كريمة تحظى باحترام الخلفاء والعلماء، وامتدت بها الحياة إلى خلافة معاوية -رضي الله عنه-. وقيل: إنها توفيت سنة إحدى وخمسين

بسرف ولها ثمانون سنة، ودُفنت في موضع قبتها الذي كان فيه عرسها -ا-، وهكذا جعل الله -عز وجل- المكان الذي تزوجت به ميمونة هو مثواها الأخير.

قال يزيد بن الأصم: «دفنَّا ميمونة بسرف في الظلة التي بنى فيها رسول الله -ﷺ-.

وتلك هي أمنا وأم المؤمنين أجمعين ميمونة بنت الحارث الهلالية -ا-، آخر حبات العقد الفريد، العقد النبوي الطاهر المطهر، وإحدى أمهات المؤمنين اللواتي ينضوين تحت قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأحزاب، آية: 33].

الفهرس

أسماء بنت أبي بكر 7
نَسِيبَةُ المَازِنِيَّةُ 23
أسماء بنت يزيد 33
أمُّ سلمة 39
رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ 53
الخنساء 63
السيدة الطاهرة رقية 71
الغُمَيصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ 85
عائشة بنت أبي بكر 93
حَلِيمةُ السَّعديَّةُ 115
صفيَّة بِنْتُ عَبْدِ المطَّلب 123
فَاطِمَةُ الزَّهراء 133
خولة بنت ثعلبة 147
زينب 153
مارية القبطية – 169 – ا
جويرية بنت الحارث – 175 – ا
أمُّ المؤمنين 181
أم أيمن 187
أمُّ المؤمنين 193
ميمونة بنت الحارث – 199 – ا

Table of Contents

أسماء بنت أبي بكر
نسِيبَةُ المَازِنِيَّةُ
أسماء بنت يزيد
أمُّ سلمة
رَمْلَةُ بِنْتُ أَبي سُفْيَانَ
الخنساء
السيدة الطاهرة رقية
الغُمَيصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ
عائشة بنت أبي بكر
حَلِيمةُ السَّعديَّةُ
صفيَّة بِنْتُ عَبْدِ المطَّلب
فَاطِمَةُ الزَّهراء
خولة بنت ثعلبة
زينب
-1- مارية القبطية
-1- جويرية بنت الحارث
أمُّ المؤمنين
أم أيمن
أمُّ المؤمنين
-1- ميمونة بنت الحارث
الفهرس